

# الباب الأول

النقائض في الجاهلية

## الفصل الأول

نشأة النقائض وفنونها

- ١ -

كانت طبيعة الحياة الجاهلية أبعد الأسباب في نشأة المناقضة بين شعراء العربية قبل الإسلام، وكانت العامل الأول في استحالتها من طور السذاجة والطفولة إلى صورتها الكاملة التي ظهر عليها الإسلام فاتخذها شعراؤه أداة جدلية في ذلك الصراع الأدبي بين التقاليد الجاهلية والأصول الإسلامية .

وأخص ميزات هذه الحياة القديمة هي البداوة الفقيرة الغالبة على معظم الجزيرة العربية ، وقد كانت بداوة صحراوية قاحلة جافة يندر فيها الخصب الداعي إلى الهدوء والاستقرار ، وتنعدم فيها المواد الأخرى التي تقوم الحياة وتضطر السكان إلى الخضوع لنظم عامة ، وسلطان نافذ يحد من حريتهم الفردية والاجتماعية في سبيل القوت الموفور ، والأمن الشامل ، والنظام المقرر ، وكان من ذلك أن ضُغف اتصال العرب بالأرض ، وتشبههم الدائم بإقليم خاص ، وصارت دنياهم متحركة غير قارة ، وحياتهم مضطربة غير منسقة .

هذه البداوة الفقيرة أدت إلى ظاهرتين طبيعيتين :

إحداها هذا الفقر الحسى والعلمى، فما ظنك بحياة تخضع فى كيانها المادى لعامل المصادفة والانتظار السلبي لا تقوم على مصادر منظمة ولا كدح ميقون الآثار، يرقب الأعراب مساقط الغيث فيهرعون إليها أينما كانت لعلمهم ظافرون منها بمراع وقتية للإبل والشاه التى يكتسون من أصوافها وأوبارها، ويطعمون بالبانها ولحومها ثم يركبونها عرض البادية فى سبيل مرعى آخر يعتزكون حوله . وأما إذا أخلف المطر أو قل الغيث فالجذب المهلك ، والبلاء الشامل ، وأكل الحشرات ، وشرب الماء الآسن ، والبؤس الشديد .... مثل هذه الحياة الشحيحة المضطربة لا ينتظر فيها سكون أو تفكير علمى أو إقامة معاهد دراسية أو نحو ذلك ، فكان جانبها العلمى فقيراً مجدياً ، وقصارى ما عند الأعراب معارف تجريبية ، وأساطير وخرافات . . . فلما تقدمت بداوتها نشأ فيها الشعر وكان ميزتهم الأدبية البارزة .

والثانية هذا الغنى النفسى ، والتشبث بالحرية إلى أبعد الآماد ، والنفور من الذلة والخضوع لقوانين حكومية ، وكيف يحتمل البدوى ذلك وهو لا يظفر بعيش يعوض عليه ما يخسر من حرية ؟ أيرضى بالجمع بين فقيرين : مادى ونفسى ، دون عزاء آخر يرضيه ويطمئن إليه فى هذه الدنيا المجذبة القاسية ؟ إنما تجوز القوانين على الشعب القار الذى ينعم بعيش خصب ، وبيئة غنية ، وأمن وطيد ، يتكالب عليه أفراده فيحتاجون إلى قوانين تنظم حياتهم ، وتكبح شياطينهم ، وهم بها راضون ، لكن الفتى العربى حين حُرِم الحياة المادية القانعة نشأت فى نفسه حساسية نائرة ، ونزعة غلابة جعلته ينفّر من ذل آخر بجانب قسوة الطبيعة فتجمل من مظاهر الخضوع ، وتعلق بالحرية تعلقاً جعله يؤثرها مع فقرها على الغنى الذليل .

ذلك الاضطراب المادى ، وعدم قيام الحكومة العامة التى تفرض النظام ، وتحقق العدالة الداخلية ، والأمن الخارجى ، وتحمى الأفراد والعشائر جعل العربى يبحث عن نظام آخر جزئى يحمى حياته ويحفظ لنفسه عزتها وكبرياءها ؛ فإذا فعل ؟ أنشأ حكومة صغيرة تقوم له فى هذه البادية الرهيبية مقام الحكومة العامة ؛ فكانت القبيلة أو النظام القبلى . . . والقبيلة هى دولة الأعرابى ، وموئله ، ووحدته الاجتماعية ، توافرت فيها المسئولية المشتركة بين أفرادها جميعاً ، فكل فرد صورته المصغرة ومثلها أمام القبائل الأخرى وفى الأسواق والنوادى وفى الشعر والنثر ، وهى مسئولة عن جرائم الأفراد وحمايتهم ، وبذلك تكون عقد اجتماعى يضم أعضائها ويؤلف منهم عصابة واحدة لثلاثاً كلها ذؤبان الأعراب ولصوص الصحراء<sup>(١)</sup> .

الفقر ، والحرية ، وهذه المسئولية المشتركة بين أفراد القبيلة . . نشأ عنها عدم احتمال الضيم والثورة لأقل الأسباب ، والعمل على إشاعة رهبة القبيلة بين القبائل ، والتعلق بأسباب العيش المادى مهما يلق الإنسان فى ذلك من مشاق وعناء ، لذلك كانت الحياة الجاهلية حياة حمراء ، وعراً كادائياً فى نواحي هذه الجزيرة بين القبائل فرادى وجماعات ، وكانت الوشائج والصلات القبلية كالحدود القومية للشعوب الحديثة ، ولتقويم هذه الصلات القبلية قامت مسألة الأنساب لمعرفة أصول القبائل وفروعها وتكوين عصبيتها ، ومهما تكن قيمة الأنساب العلمية فقد صارت من مقومات الحياة الجاهلية وأصلاً من أصولها الاجتماعية والأدبية .

كان العرب يقتتلون على المياه ، والآبار ، والمراعى ، وكل مظاهر الخصب ، وعلى حماية اللطائم ، وما يجبى من القوافل ، وطرق التجارة فى الجزيرة ، وفى سبيل

(١) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٢٥ الطبعة الأولى .

الكرامة ، وعزة النفس ، وحماية الجار والعرض ، وفي الثأر والنجدة للصديق أو الخليف أو القريب ، ولأجل الرياسة وزعامة القبائل وفي سبيل النفوذ الخارجى كما كان بين المناذرة والفساسنة فى ظل الفرس والروم وأخيراً فى سبيل الفقراء والحنق على الأغنياء كما حدث من الصعاليك والغربان .

على هذه الأسس قامت حروب العرب الداخلىة الكثيرة التى لم تنقطع ، وأما حروبها الخارجىة فكانت قليلة ، وكانت فى وجه الفرس غالباً وفى وجه الحبشة والروم قليلاً ، ولم يكبد مجتمع العرب لحرب خارجىة فى صورة أمة واحدة .

كانت الحرب ، إذاً ، ضرورة للحصول على العيش وتحقيق الحرية والكرامة ثم صارت ، مع الأيام ، غاية يفخر بها الشيوخ والفتيان ويتخذها بعضهم حرفة ومفخرة ، ويعدون لها المشغلة الأساسية لحياة الرجل فيعدونه لها ، ويعدون لها امتحان رجولته وبأسه ووسيلة الظفر بإعجاب الرجال والنساء .

هذه الحروب أو الأيام — وهو الاسم الاصطلاحى الذى يطلقه عليها المؤرخون والقصاص — كانت تستلزم الشعر حتماً ، وكانت أشبه شىء بالثورات السياسىة التى تستدعى نهضة أدبية تؤرث ناراها وتسجل آثارها ، وتدعو إليها فكانت هذه الفنون الشعرىة المتصلة بأيام العرب من حماسة ، وفخر ، وهجاء ، وثناء ، وإذا لاحظنا أن الحماسة من باب الفخر أو هى منه بسبب قوى ، وأن الرثاء إنما كان تصويراً لشعور الحزن ومعرضاً للفخر والوعيد ، انتهينا إلى هذين الفنين : الفخر والهجاء ؛ فكانا أهم فنون الشعر الحربى أو الشعر السياسى القديم . ومن الملاحظ أن نشأة الشعر القديم أو نهضته إنما كانت مصاحبة للحروب ، وفى ظلال السيف ، وكان فن الحماسة من أقدم فنون الشعر . . والعربى منه بخاصة .

واكن كيف اتصلت هذه الفنون الشعرية بالتقائض ؟  
من الطبيعي أن ينشأ فن الحماسة دعوة إلى القتال في سبيل العيش أو الكرامة  
من جانب كل قبيلة ، وأن يتبع النصر أو الهزيمة فخر أو وعيد وتهديد بالانتقام  
أو حفر للأخذ بالتأثر أو تسجيل للانتصار ، وذلك يستتبع هجاء العدو ، ونشر  
مخازيه ، وذكر جبينه وفراره أو خضوعه وأسرته ثم يكون بكاء القتلى والعزم على  
التأرلم وبذلك تتجاوب أرجاء الجزيرة بهذا الشعر الحربي الذي كان وقوداً  
لهذه النار .

كان الشعر حرباً أدبية تسير هذه الحروب المادية ، وكما كانت أدوات  
الحرب المادية متشابهة متناقضة ، فكذلك كانت فنون هذا الشعر متشابهة  
متناقضة ، يلقي بعضها نظيره متحدياً عنيداً يثبت له أو يهزمه ؛ فالفخر يلقاه فخر ،  
والهجاء ينقضه هجاء ، والحماسة تصطدم بنظيرتها ، وهكذا تتلاقى الفنون وتعتزك  
المعاني في سبيل القبائل وفي ظلال الأيام .

أما عن المصدر النفسى أو الفنى لتولد التقائض من هذه الفنون فالأمر ، عندى  
لا يعدو أن يكون عدوى نفسية ومسايرة ، وقبولاً للتحدى ؛ فالمشاهد بين الأحياء  
أن يصيح الفرد في وجه آخر عاتباً ، أو ساباً ، أو مهدداً أو هازئاً فيرد عليه الآخر  
بنحو صياحه عاتباً أو ساباً أو مهدداً أو ساخراً ملتزماً معانيه وأسلوبه ، يضع بازائه  
نظيره ، ويفسد عليه معانيه ، وقد يستدعى الموقف عراكاً وهلاكاً . كذلك يبدأ  
الشاعر بالفخر أو الهجاء ، رافعاً عقيرته فينبى له نده من قبيل آخر ، مثلاً ، ليرد  
عليه من نفس بحره وقافيته ليحقق بذلك الموسيقى الصوتية ، وليرد عليه صيحته  
المدوية ، ويتحداه بنفس أسلوبه ؛ فإذا تناول معانيه ردها عليه فاسدة لأنها كذب

واقتراء ، أو لأن له عندها نظائرها ، أو لأن تفسيرها غير ما قال الأول أو لغير ذلك من طرق المناقضة ، وبذلك يشترك الشاعران في جو واحد من أجواء الخصومة الشعرية ، يغمرها معاً حتى يشتفيا ، ثم هما متربصان إلى مثل ذلك الموقف إن اقتضته الحال ، وكثيرا ما تقتضيه الحال .

ولما كان الفخر والهجاء في مقدمة الفنون التي قامت عليها المناقضة أو هما قناتها الأساسيان ، ناسب أن نقول في كل منهما كلمة إيضاحية تبين حقيقته حقيقته وخواصه .

وقد سبق أن الفخر هو التمدح بالخصال ، وعدّ القديم ، وادعاء العظم والكبر والشرف ، وتفاخر القوم فخر بعضهم على بعض . والفخور المتكبر<sup>(١)</sup> .

وهذا معناه أن الفخر يصدر عن نفس متعالية متعاطمة ، ويتخذ معانيه من جانب المفتخر نفسه أو قومه بخلاف الهجاء فإنه يصدر عن نفس ساخطة أو مزدرية ساخرة ، ويتخذ مادته من جانب المهجو نفسه أو قومه ، فهما فنان متقابلان وإن اختلفا معاً في القصائد وتلازما لأن الذي يتعالى على غيره إنما يحقره صريحاً أو استلزاماً .

وقد قام الفخر على الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية القديمة كالكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، وكثرة العدد ، والسيادة ، والظفر في الحروب ، والمروءة ، وشرف الأنساب والأحساب كما كان الهجاء يعضدها .

كان الفخر ، كما قلنا ، ظاهرة طبيعية بين الشعراء الجاهليين اقتضتها حياة القبائل المتحاربة والأفراد المتنافسين ، بل هو ظاهرة اجتماعية عامة ، يحاول بها كل

(١) راجع لسان العرب مادة فخر والعمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١١٤ .

أن يثبت امتيازته وتفوقه على غيره إشباعاً لشهوة العزة وإرضاء لحب المتسامي  
والشرف؛ عرفه الشعر الجاهلي من أقدم عهوده، وعرف به جماعة من فحول شعرائه  
كطرفة، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة العبسي، ولييد بن ربيعة،  
وحسان بن ثابت، وقيس بن الخطيم، وشاع في شعر (الأيام) وكان سجل المارك  
كما كان قبلياً وفردياً، ولعل الغالب عليه كان الفخر بالقبائل استجابة للنظام القبلي  
في حياة البادية، وسنداً لفن المناقضة العامة.

فلما جاء الإسلام بقي هذا الشكل وأضيف إليه الفخر بالدين، والسلطان،  
والجهاد في سبيلهما، والنهوض بالملك وأعبائه حتى إذا تقدم القرن الأول وحيث  
العصبيات القبلية في ظل الأمويين عادت الصورة الجاهلية قوية وشاعت على السنة  
الفحول الإسلاميين حتى بلغت الذروة، فتراهم يعدون أفرج بيت قول الفرزدق:  
ترى الناس ماسرنا يسرون خلفنا وإن نحن أوماننا إلى الناس وقفوا  
أو قول جرير: —

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

أو قول ابن ميادة: —

ولو أن قيساً قيساً عيلاناً أقسمت على الشمس لم يطلع عليك حجابها

وأفرج بيت صنعه محدث عندهم قول بشار: —

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو أمطرت دما

إذا ما أعرنا سيدياً من قبيلة ذرا منبر صلى علينا وسلما

وقد أدرج أبو تمام أمثلة الفخر في باب الحماسة وهو الباب الأول من مختاراته  
المعروفة (بديوان الحماسة) باعتبار أن معنى الحماسة الشدة والشجاعة، وأن الفخر  
فن القوة، وتصوير الشجاعة وآثارها في الحروب والمواقف الخطيرة، وعلى كل فقد

كان الفخر أحد ركني النقائص في تاريخها منذ نشأته الجاهلية إلى أن مات  
غورها الإسلاميون .

أما الهجاء فهو الشتم بالشعر كما يقول ابن منظور وهو خلاف المدح . والمهاجاة  
بين الشاعرين ينهاجيان ، وهم يتهاجون : يهجو بعضهم بعضاً <sup>(١)</sup> والهجاء ظاهرة  
السخط أو السخرية كما علمت ، يتخذ معانيه من سوءات المهجوع أو مثالب قومه ،  
فالمفتخر يلتفت إلى نفسه ليشتق منها مادته والهاجى ينظر إلى خصمه لينشر مساويه  
مقراً أو ساخراً .

ويفضل النقاد السابقون ما كان من الهجاء عفواً خالياً من الفحش بحيث  
تنشده العذراء في خدرها فلا يتبع بمثلهما نحو قول أوس : —

إذا ناقة شُدَّت برحلٍ وتُعرفِ إلى حيِّكم بعدى ، فضلٌ ضلالها  
واختار أبو العباس قول جرير : —

لو أن تغلبَ جمعت أحسابها يومَ التفاخرُ لم تزن مثقالاً  
وأشده ما كان إقذاً وهو ما فيه تفضيل قوم على قوم كقول جرير : —  
ففضَّ الطرفَ إنك من نعيمٍ فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

ومن كلام صاحب الوسطة : « فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل  
والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسهل  
حفظه ، وأسرع علوته بالقلب ، ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسبب  
محض ، ليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن » <sup>(٢)</sup> . لذلك أعجب النقاد بقول زهير  
في تشككه ، وتهزله ، وتجاهله فيما يعلم :

(١) لسان العرب مادة هجا . وراجع والعمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٣٨

(٢) اللمدة ج ٢ ص ١٣٩ والوساطة ص ٣٩ .

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساءه  
فإن تكن النساء محبّات فحق لكل مخصّنة هداه  
وعدوه من أشد الهجاء وأمضه ، وكذلك لم يرض النابغة الذبياني عن إفحاش  
قومه في هجاء عامر بن الطفيل بعد وقعة ( حسي ) لشرف عامر ولكنه هجاه  
متهمًا به فألمه ، وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود وترك الفحش فيه أصوب  
إلا جريراً قال لبيته : « إذا مدحتهم فلا تظيلوا المادحة ، وإذا هجوتهم فخالقوا » ،  
وقال أيضاً : « إذا هجوت فأضحك » . وسلك طريقته في الهجاء سواء على بن  
العباس الرومي فإنه كان يظيل ويفحش . يقول ابن رشيق : « وأنا أرى أن  
التعريض أهجى من التصريح لا تساع الظن في التعريض ، وشدة تعلق النفس  
به . والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به  
النفس علماً وقبلته يقيناً في أول وهلة ، فكان كل يوم في نقصان لسيان أو ملل  
يعرض ، هذا هو المذهب الصحيح على أن يكون المهجو ذا قدر في نفسه وحسبه ،  
فأما إن كان لا يوقظه التلويح ولا يؤلمه إلا التصريح فذلك »<sup>(١)</sup> .

ويوازن الغربيون بين الشعر الهجائي Satiric Poetry وبين الشعر  
التعليمي Didactic Poetry ويرون أن الأول نص على الرذائل والأخطاء الاجتماعية  
والثاني إشادة بالفضائل وحث على التمسك بها . فغايتهما واحدة هي توجيه الناس  
إلى الخير والكمال<sup>(٢)</sup> ، وذلك غير الشتم والسباب .

نشأ الهجاء مع الفخر قديماً ، وقامت معانيه على الرذائل الفردية والاجتماعية

(١) نفس المرجع ص ١٤٠

(٢) راجع

كالبخل ، والجبن ، والفرار ، وَضَعَةِ الأحساب والأنساب ، وغلب عليه في الجاهلية القصد والاعتدال والبراءة من الفحش والإقذاع .

ولما جاء الإسلام ونشط الهجاء في سبيل دعوته كان منه نوعان أول الأمر أحدهما جاهلي قديم يتصل بالأحساب ، والأنساب ، والأيام يمثله حسان بن ثابت وكمب بن مالك لإغاظته قريش قبل أن تسلم إذ كان أقفهم جاهلياً فلما أسلموا لم يروا فيه خطراً لأنه يناقض روح الإسلام الذي اعتنقوه ، فلا بأس عليهم من هجاء جاهلي قديم ، والثاني مذهب إسلامي يمثله عبد الله بن رواحة ، وكان يهجوم بالكفر والإعراض عن سبيل الهداية فما كانوا يبالونه إذ كان ذكراً لمساهم عليه وراضون به ، فلما أسلموا وجدوا ماضياً سيئاً مسجلاً عليهم فأنفوا منه ، وربما أضاعوا شعره .

ومع ذلك فقد بقي النوع الجاهلي يمثله الخطيئة أصدق تمثيل حتى كان العصر الأموي فدخل فيه الفحش والإقذاع إلى مدى بعيد ونال من الأعراس والحرمان ، وصور القبائح صوراً شنيعة ، وقد جلى في ذلك جرير والفرزدق والأخطل في النقائص ، وبلغوا بالهجاء مبلغاً أساء إلى الأخلاق وأزرى بالكرامات .  
وهناك فنون أخرى لا بست النقائص ودخلت فيها كالنسيب ، والرثاء ، والوصف والسياسة ترد أثناء الدراسة ، وسنرى أنها كانت متأثرة بهذين الفنين وخاضعة لتيارها ، فلنرقبها في طريقنا .

على أنه ليس من طبيعة الأشياء أن تطلع علينا النقائص ، أول ما تطلع ، كاملة الصورة ، تامة التقاليد والعناصر ، متوافرة الشرائط والطرائق كما رأيناها

أخيراً عند جرير وصاحبيه ؛ فلا بد أن تدرج طفلة ثم تيفع وتشب إلى أن تستوى  
ناضجة متجاوبة الموسيقا متقابلة المعاني ، ولو توافرت لنا نصوصها مرتبة ترتيباً  
تاريخياً ، محققة تحقيقاً ، علمياً إذاً ، لاستطعنا أن نؤرخ حياتها الأولى ، وتبين  
كيف تعثرت في بعض التقاليد والتقنون حتى أخذت صورتها الأولى في العصر  
الجاهلي ، ومع ذلك فلنتخذ من هذه النصوص المبعثرة ما يقرب لنا تدرج هذا  
الفن من درجة الحوار الأولى الساذج إلى طور المناقضة الفنية المعروفة ؛ فإذا صح  
ما روى لنا من نصوصها القديمة ، كانت النقائص ثراً أول أمرها وكانت رجزاً  
أيضاً ، ثم كانت تنشأ على أساس الانتصار في الحروب أو الخلاف في المواقف  
الاجتماعية مدعومة بالبراهين أو معتمدة على الفخر والهجاء معاً أو منفردين .  
وكانت تعنى بالمقابلة بين المعاني دون التزام سائر التقاليد أو بعضها ، فكانت أشبه  
برد وإنكار . . . . . وبقيت كذلك مدة ما ، حتى كانت نهضة الشعر وظهور فحوله  
فتمت على أيديهم تقاليدها وإن بقيت صورة (الرد) تتراءى خلال النقائص  
الكاملة المشهورة .

ومن أول ما يلتقانا من هذه النصوص ما ورد في أقاصيص طسم وجديس أن  
امرأة من جديس شكت إلى ملكهم (عمليق) أن زوجها طلقها ويريد أخذ  
ابنها منها فقالت للمرأة : « أيها الملك ، حملته تسعاً ، ووضعت دافعاً ، وأرضعته  
شفعاً ، فلما تمت أوصاله ، وحن فِصاله ، أراد أخذه مني كرهاً ، ليركني مرهاً »  
— أي ذاهبة العقل — فقال الزوج : « أيها الملك ، أعطيتها المال كاملاً ، ولم  
أصب منها طائلاً ، إلا وليداً خاملاً ، فافعل ما كنت فاعلاً »<sup>(١)</sup> .

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٨ بولاني

فأنت ترى أن المرأة تحتج بما لقيت في سبيل وليدها من جهود وآلام حتى تمت أوصاله ، ولكن الرجل ينقض حجتها بما دفع من ثمن ذلك ليظفر بوليده .

وهي مناقضة ثرية يغلب عليها الصنعة والوضع وإن كانت تمثل عسف هذا السلطان البائد لأن الملك أمر بالغلام ، فيما أمر ، أن يُسرق في مماليكه ، فغضبت المرأة وهجت الملك فأمر هذا ألا تزف امرأة من جديس إلى زوجها حتى تدخل عليه ، ومكث على تلك السنة مدة إلى أن ثارت امرأة من جديس تدعى (عفيرة) واستحثت قومها على الملك فغضبوا عليه بزعامة أخيها الأسود بن عفار ، فعرض على الملأ من قومه أن يدعوا الملك ورهظه إلى طعام فإذا حضروا قتلوهم ، فلما بلغ ذلك عفيرة قالت :

لا تغدرنَّ فإن العدر منقصةٌ	وكل أمر له غيبٌ وإن صغراً
إني أخاف عليكم مثل تيك غداً	وفي الأمور تباعيد لمن نظراً
حشوا سعيراً لهم منا مناهضة	فلكم باسلٌ أرجو له الظفراً
سيانٍ باغٍ علينا غير مُتشدِّ	يغشى الظلامة لا يبقى ومن غدرا
فناهضوا القوم صبراً في ديارهم	على الكريمة حتى تخطموا القصرأ

فرد عليها أخوها الأسود بقوله —

إني لعمرك لا أبدى مناهضة	للقوم أخشى صروف الحين إن ظفراً
ففي التحمل للأقوام مدركةٌ	وفي الأمور تباعيد لمن نظراً
كفى لديك ولا تهى لعاقبة	أخاك فيما يرى في الرأي إن حضراً
إني زعيم ليطم حين يحضرنا	إلى الطعام ، وذاك الرأي إن قدراً
فليس ينفع ذا رأى يدبره	زجر الزواجر والأيمان إن زجراً

وعصاها وأطاعه قومه ، وقتلوا الملك في خبر طويل<sup>(١)</sup> .

فاعجب لهذه المناقضة الشعرية التامة الأركان : وحدة الموضوع ، والبحر ، والروى ، وحركته ، مع تقابل المعاني تحقيقاً لهذه الصورة الجدلية ، والراجح أن هذا من وضع القصاص ، ومما يكشف الأمر هذا التقليد الواضح ، فكما كان جرير يأخذ من شعر الأخطل أو الفرزدق الشطر أو البيت أثناء المناقضة ، نجد الواضع هنا يفعل ذلك ويورد في شعر ( الأسود ) هذا الشطر الوارد في شعراً ( عفيرة ) « وفي الأمور تباعيد لمن نظرا » .

وربما كان أدنى من ذلك إلى الصواب ، وإن لم يكن بريئاً من الوضع أيضاً ما دار بين معديكرب بن الحارث بن عمرو بن حجر الكندي وبين أبي حنّس يوم الكلاب الأول ؛ فقد كان بين سامة بن الحارث وأخيه شرحبيل ، وفيه يأتي ( أبو حنّس ) عَصَم بن النعمان من بني جشم بن بكر برأس شرحبيل ويضعه أمام سامة ، فقال سامة وقد أسف لمصرع أخيه ورأى منه ذلك أبو حنّس فهرب بعدما كان ينتظر الجائزة ، وقيل إن الشعر لمعديكرب أخيهما : —

ألا أبلغ أبا حنّس رسولا      فمالك لا تجي إلى الثواب ؟  
تعلّم أن خير الناس طراً      قتيل بين أحجار الكلاب  
تداعت حوله جشم بن بكر      وأسأله جعاسيس الأبواب  
قتيل ما قتيلك يا ابن سلمي      تضرّ به صديقك أو تحمّابي  
فأجابه أبو حنّس فقال :

أحاذر أن أحييك ثم تحبو      حياء أبيك يوم صنيعات<sup>(٢)</sup>

(١) شرح ديوان الأعشى طبع أوربفيس ٧٤-٨٢ . (٢) يوم صنيعات : قيل كان للحارث الكندي ابن مريض بين حين من العرب تميم وبكر ، فأتى بالدغته حية فقتل به خمسين من بكر

وكانت غَدْرَةً شنعاء سارت      تقلدها أبوك إلى الماتِ  
تتابع سبعة كانوا الأمَّ      كأجرام النعام الحائراتِ<sup>(١)</sup>  
فالموضوع واحد ، وكذلك البحر ، ولكن القافية مختلفة بينهما ، وكان الثاني  
رداً على الأول وشكا فيما يدعيه سلمة من إثابة أبي حنش على قتله خصمه كما وعد.  
نحو هذه الصورة الناقصة وحدة القافية يصح أن تكون خطوة في طريق تدرج  
النقائص إلى النضج والكمال لو نُقِيَ عنها الوضع .

ومن هذا الضرب ما دار بين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص الأسدي  
حول مقتل حُجْرٍ فيما يُحكى . فقد كان قطعاً مضطربة فيها حوار وجدل  
قل فيه اكتمال المناقضة وتمام صورتها المقررة . فمن المشهور أن امرأ القيس لما  
قتلت بنو أسد أباه حُجراً قال متوعداً :

والله لا يذهب شيخي باطلا	حتى أير مالكا وكاهلا
القاتلين الملك الخلا حلا	خير معدٍ حسباً وناثلا
يا لهف هندٍ إذ خطئن كاهلا	نحنُ جلبنا القرع القوافلا
يحملننا والأسل النواهلا	مستفترات بالحصى جوافلا
يستفر الأواخر الأوائلا	فصرتُ فيهم غانماً وقاتلا

هذا الرجز كان من أسبق ما قال شيخ الشعراء في مهلك أبيه الملك ، وكان  
فاتحة للحوار بينه وبين شاعر الأسديين ، وربما كانت الأبيات الآتية ردَّ عبيد  
على امرئ القيس ، يسخر به ويكذبه فيما يدعى من حماسة وظفر ، يقول عبيد :

يا ذا الخوفنا بقتلنا      ل أبيه إذلالا وحيننا  
أزعمت أنك قد قتلتنا      سراتنا كذباً وميننا

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٣١ والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٥٣

هـلأ على حُجْر بن أمِّ قِطَامٍ تَبْكِي لا عَلَيْنَا  
فهو ، إن صح ، ردّ أولى ساذج لم يتقيد بأصول المناقضة ، ولما تعقب امرؤ  
القيس بنى أسد ففاتوه ولقى كنانة ووضع فيهم السلاح خطأ قال : —

ألا يالْهَفَ هِنْدٍ إِثْرَ قَوْمِ هُمُ كَانُوا الشِّفَاءَ فَلَمْ يُصَابُوا  
وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ بِنَى أَبِيهِمْ وَبِالْأَشْقَيْنِ مَا كَانَ الْعِقَابُ  
وَأَفْلَتْنِ عِلْبَاءَ جَرِيضًا وَلَوْ أَدْرَكْتَهُ صَفِيرَ الْوِطَابِ<sup>(١)</sup>

ويظهر أن هذه الأبيات بلغت عبيداً فقال ينقضها على امرئ القيس : —

أتوعدُ أسرتي وتركتَ حُجْرًا يُرِيغُ سَوَادَ عَيْنِيهِ الْغُرَابُ  
أَيَّ دِينَ الْمَلُوكِ فَهَمَّ لِقَاحِ إِذَا نَدَبُوا إِلَى حَرْبٍ أَجَابُوا  
فَلَوْ أَدْرَكْتَ عِلْبَاءَ بَنِ قَيْسٍ قَنِعْتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِبَابِ

يعيّرة مصرع أبيه ، ويهدده بقومه ، ويرميه بقصور همته دون الانتقام من  
بنى أسد ، وعلى الرغم من ادعاء امرئ القيس أنه ظفر بشأه<sup>(٢)</sup> فإن القصة تدل  
على خلاف ذلك بدليل انصراف أنصاره عنه مع قلتهم ، وبلاء بنى أسد في سبيل  
حريتهم ، وسخرية عبيد به<sup>(٣)</sup> ومطاردة المناذرة له والتجائه إلى السموءل فالغساسنة  
فالروم ثم مصرعه آخر الأمر .

هذه الشواهد وغيرها مما ورد في ديواني امرئ القيس وعبيد متصلة بيوم  
حجر تدل على أن هذا الحوار لم يتخذ صورة المناقضة دائماً ، وإنما تردّد بين الرد  
والحوار أيضاً ، مما يمثل طفولة هذا الفن بين هذين الشعراء .

(١) هند أخت امرئ القيس ، علباء بن الحارث الأسدي قاتل حجر . جريص غاص بريقه  
صفر الوطاب : خلا بدنه من روحه — الديوان ص ١٥ ط السندوني

(٢) ديوان عبيد طبع أوربة ص ٥٢ .

(٣) الديوان ص ١٥١ .

وفي تضاعيف هذا الجدل الشعري في سبيل الأيام ، والحوادث ، والمقامات ،  
نجد صوراً لا تبلغ درجة المناقضة وإن لم تبعد عنها كثيراً ولا سيما في جانب المعاني .  
من ذلك ما كان يوم الكلاب الثاني حين قال راجزٌ من بني مَدْحَج : —  
في كلِّ عامٍ نَعَمٌ نَتَّابُهُ      على الكلابِ غَيْبُ أَصْحَابُهُ  
فسمعه غلام من سعد أعدائهم فأجابه : —

في كلِّ عامٍ نَعَمٌ تَحْوُونُهُ      يُلْحِقُهُ قَوْمٌ وَيَنْتَجُونُهُ  
أربابُهُ نَوَّكِي فَلَاحِمُونُهُ      ولا يلاقون طِعَانًا دُونَهُ  
أَنعمَ الأبناءَ تَحْسِبُونُهُ      هيهات هيهات لما توعِدُونُهُ<sup>(١)</sup>

هذه مراجعة تقوم على المناقضة المعنوية وإن لم يلتزم فيها وحدة القافية . ومن  
ذلك ما كان بين عامر بن الطفيل وزيد الخليل ؛ فقد خرج رجل من طيء اسمه  
دُوَّاب إلى صهر له في هوازن فأصيب ، فلما علم زيد أغار على عامر ، وعاد يقول  
لا يبوء به إلا عامر بن مالك ملاعب الأسننة ، فأما ابن الطفيل فلا يبوء به ،  
وقال زيد : —

لا أرى أن بالقتيل قتيلا      عامرياً يني بقتلِ دُوَّاب  
ليس من لاعب الأسننة في النقة      مع وسمى ملاعباً ياراب  
عامر ليس عامر بن طَقَيْل      لكن العمر رأس حتى كلاب  
ذاك إن ألقه أنال به الوتر      رَوقرت به عيون الصِّحاب

فغضب عامر بن الطفيل وقال يجيب زيد الخليل : —

قل لزيد قد كنت تؤثر بالحلل      مـ إذا سُفِّت حلومُ الرجال  
ليس هذا القتل من سلف الخ      في كُلاعٍ ويحصب وكُلال

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٢٧ والعتد القرظ ج ٣ ص ٣٥٤ .

أو بنى آكل المسرار ولا صيد  
لدى بنى جفنة الملوك الطوال  
إن في قتل عامر بن طفيل لبواء لطيب<sup>(١)</sup>  
ينقض عامر معاني زيد فيهون من شأن القتييل ، ويضع نفسه بإزاء طيب<sup>(٢)</sup>  
كلها ، مع وحدة البحر دون القافية .

ولما قتل الحارث بن ظالم المري جعفر بن كلاب العامري لحق بحاجب بن  
زرارة التميمي ، فلما طلبته بنو عامر نجاه عنه حاجب ، فغضب الحارث وقال : —

لعمري لقد جاورت في حى وائل  
ومن وائل جاورت في حى تغلب  
فأصبخت في حى الأراقم لم يقل  
لى القوم : يا حار بن ظالم ؛ اذهب  
وقد كان ظني إذ عقلت إليكم  
بنى عدس ظني بأصحاب يثرب  
غداة أتاهم تتبع في جنوده  
فلم يسلموا المرين من حى يحضب  
فإن تك في عليا هوازن شوكة  
فأعجب بها من حاجب ثم أعجب  
فغضب حاجب وقال : —

لعمري أيبك الخير ، يا حار ، إنني  
وقد علم الحى المعدى أننا  
وإنا إذا ماجأ جأى ظلامه  
لبسنا له ثوبى : وفاء ونائل  
وإن تميا لم تحارب قبيلة  
من الناس إلا أولعت بالكواهل  
ولو حاربنا عامر يا بن ظالم  
لعضت علينا عامر بالأنامل  
ولا ستيقنت عليا هوزان أننا  
سنوطها في دارها بالقنابل  
ولكننى لا أبعث الحرب ظلما  
ولو هجتها لم ألف شحمة آكل<sup>(٣)</sup>  
أخذ الحارث على حاجب بن زرارة أنه لم يمنعه منعة تغلب ، وأنه خيب فيه

(٢) الإغاني ج ١٠ ص ٢٠ بولاق .

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٥٣ بولاق .

ظنه ، وأن هوازن ، من قيس عيلان ، أعز من تميم ، فرد عليه حاجب بأنه أعز من كليب بن وائل سيد تغلب الأول ، وأن تميماً معروف بالبأس والوفاء والنجدة ، وأن بني عامر أو هوازن ، من قيس عيلان ، لا يثبتون لتميماً ، ولكن حاجب بن زرارة لم يشأ ، بحمايته وهوجان ، أن يبعث حرباً ظالمة ، في حين أنه في الحروب مظفر مقدم .

فالموضوع واحد وكذلك البحر دون القافية مع تناقض المعاني كما رأيت ، ومثل هذا لا يعوزه من شروط النقائص إلا وحدة القافية .

ومع تقدم هذا الفن الجدلي أخذ يستكمل صورته الأخيرة بين الجاهليين حتى رأينا منه نحو هذه الصورة الكاملة التي صارت تقليداً فنياً يعده التاريخ الأدبي طور النقائص الأولى ، كما حرت أمثلة في التمهيد .

ونشير هنا إلى قصيدة قيس بن الخطيم الأوسى في حرب بعث وحاطب : —

أتعرف رسماً كاطراد المذاهبِ      لأسماءَ وحشاً غير موقف راكبِ

ونقيضتها لعبد الله بن رواحة : —

أشأقتك ليلي في الخليطِ الجانِبِ      نعم، فرشاشُ الدمع في الصدرِ غالي<sup>(١)</sup>

وغيرهما كثير يرد عليك في الفصول التالية .

وخلاصة هذا الفصل أن النقائص فن جاهلي قديم نشأ مع النهضة الشعرية طفلاً ساذجاً ناقص الأركان ثم أخذ يستكمل ، على الأيام ، أركانه ، وعناصره ، معتمداً ، أكثر ما اعتمد ، على فني الفخر والهجاء ، حتى تمت له أوضاعه وشرائطه وسرى فيما يلي كيف عملت فيه مقوماته ودواعيه مدة الحياة الجاهلية .

(١) راجع ديوان قيس بن الخطيم ، طبع أوربة ١٠ و ٣٦ .

## الفصل الثاني

في مقومات النقائض وعناصرها

- ١ -

نحاول هنا الإتيان بهذه العناصر العامة التي كانت مردّ النقائض وأصولها الأولى ، ثم كانت مادتها ومقومها الذي اتكأت عليه في حياتها وأطوارها جميعاً ، ولا سيما في الطور الجاهلي القديم . وقد بينا في الفصل الماضي كيف كانت الحياة العربية قبل الاسلام السبب الأصيل لنشأة هذا الفن وتحديد فنونه الرئيسية ، ونذكر هنا أن هذه الحياة البدوية نفسها وما استدعت من تقاليد اجتماعية ، وأصول أخلاقية ، هي التي قدّمت للمناقضة حوافرها الدافعة إليها ، وظللها التي عاشت في رعايتها .

وإذا كنا قد رأينا أن ( الأيام ) كانت مجال النقائض ومعرضها الحربي فإن هذه ( الأيام ) لم تقم عفواً بل وقفت تحت أويتها جماعات متعاركة متهاككة ، ألف بين كل فريق منها وشائج القرابة وما إليها فكانت هي القبائل والعشائر والبطون ونحوها ، وذلك يستدعي منا القول في الأنساب ، على أن ( الأيام ) لم تنفرد بمدّ الشعر القديم بالنقائض ، وإنما شاركها في ذلك حوادث اجتماعية أخرى متصلة بالعرف الجاري بين الأفراد والعشائر أو بالأصول الخلقية المقررة ، ومنها ما كان سلمياً أو مؤدياً إلى مغاورات أو قتال جزئي بين الأسر أو بعض بنيتها ، ثم جاء القصص بعد ذلك وروى هذه الأحداث ، والأيام ، والأنساب ، مبالغاً محرفاً

فيها لدواعٍ عصبية شتى ، فكان لزاماً علينا أن نشير إلى هذه المقومات التي سندت النقائض وكانت مُتَكَرِّراً رجالها من الشعراء .

وأول ذلك الأنساب<sup>(١)</sup> والنسب القرابة مطلقاً وإن غلبت عند الأعراب على القرابة من جهة الآباء . والعناية بالأنساب : أصولها وسلاسلها ، ظاهرة بدوية قديمة تحرص عليها الجماعات الأولى لتكوين العصبية القبلية أو الجنسية احتفاظاً بالقربى ، وتوفيراً للوحدة والمعونة ، وعرفاناً لمواطن الثارات ، ونفياً للغريب ، وتنظيماً لمسائل الإرث والزواج ، ودفعاً لعدوان المنافس والمغالبة لتعيش القبيلة عزيزة الجانب ، آمنة مذلة الجيران والعادين ، متعاطفة الآباء والأبناء ، وهي بعد ذلك تعرف مفاخرها ، وأيامها ، فيسجلها شعراؤها ويناقضون بها خصومهم من شعراء القبائل الأخرى ، وربما امتاز العرب من الفرس بحفظ أنسابهم والعناية بها ، ولعلمهم تأثروا باليونان واليهود في ذلك أو أشبهوهم على أقل تقدير .

ذلك هو الوضع الطبيعي العام لقيمة الأنساب وضرورتها عند البادين ، أما عن مقدار حظها من الصواب أو الحق العلمي فالقول فيه كثير ، ومن الخير أن تتجاوز في نظرنا التاريخية طور الطوتمية والأمومة ونحوهما ، فإن البحث فيه يطول ولا يجدى من الناحية العملية المتصلة بالأيام والنقائض على أنه لا يزال مجال الحدس والتخمين<sup>(٢)</sup> فإذا فعلنا ذلك ووقفنا عند الجاهلية الأخيرة وما روى عنها من سلاسل النسب وأصولها رأينا من ينكرها إنكاراً تاماً ويعدها وهمّاً باطلاً اخترع بعد

---

(١) راجع في الأنساب كتب : الأنساب للسمعاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ونسب عدنان وقحطان للمبرد ، والمعارف لابن قتيبة ، ونهاية الأرب للنويري ، وصح الأعمى للقلشندى ، وسبائك الذهب للبغدادي ، والأحكام السلطانية للماوردي وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الاندلسي ونسب قريش للمصعب الزبيرى .

(٢) راجع في ذلك أنساب العرب القدماء لجورجى زيدان والأساطير العربية قبل الإسلام لمحمد عبد المعيد خان .

الإسلام عوامل دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية<sup>(١)</sup> وقد يسعف هذا الفريق براهين شتى ؛ فليس يسيرا أن يوجد في البادية علم الأنساب القائم على دراسة الصلات الدموية ، وإحصاء المواليذ . وردها إلى الآباء والأمهات ، وحفظ ذلك ميراثا للأجيال المتعاقبة ، إنما ذلك من ثمار الحضارة المستقرة والنشاط العلمي الدقيق ، أما الاعتماد على الروايات ؛ وحفظ الذاكرة . ورجم النساءين فلا يمكن الثقة به ولا سيما إذا عرض له النسيان ، والمبالغة ، وعمل الأهواء والعصبيات ، وتأخر عصر التدوين . وهناك مع ما سبق كثرة تنقل القبائل ، وافتراقها ، والتداخل بينها ، ومن ينضم إليها بطريق الخلف والاستلحاق والولاء والاسترقاق كما حالفت جديلة كلباً ودخلت فيها لما ضعفت أمام الغواث عقب يوم اليماميم<sup>(٢)</sup> . والذين ينكرون الأنساب إنكاراً علمياً تاريخياً يردون أصولها البعيدة وسلاسلها المحكمة إلى اليهود وما ورد في التوراة من أنساب فلما قويت الصلة بينهم وبين العرب منذ الجاهلية ودخل فريق منهم في الاسلام بعد ذلك ، وأراد العرب الاعتزاز بالأنساب وإحياء العصبيات قلدوا ما في التوراة من سلاسل محكمة ونسجوا أنسابهم على مثالها فجاءت محكمة مفصلة دقيقة كأنها علم أصيل . ومن أسبق الدوافع إلى ذلك نظام العطاء الذي وضعه عمر بن الخطاب وجعل أساسه الأول القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبدأ بأل الرسول ، وقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم ، وقدم مضر على ربيعة لذلك ، وقريشاً على غيرهم وكان بنو هاشم مركز الدائرة ، ثم ما جدَّ بعد ذلك من إحياء العصبيات القبلية ،

(١) راجع نيكلسن : التاريخ الأدبي للعرب ، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ١٠  
وذكري أبي العلاء لطف حسين ص ١٣٥ .  
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ — ١٤٥ مطبعة التقدم وتاريخ التمدن الاسلامي  
ج ٤ ص ١٧ — ٢٧ وابن الأثير ج ٦ ص ٤٧٦ طبع أوربة .

والجنسية ، والدينية مما يأتي ميانه ، فذلك قولهم في إنكار الأنساب الجاهلية وما يتصل بها .

وهناك من يؤمن بقدر من هذه الأنساب عام إجمالى دون هذه البطون والفضائل الكثيرة المتشعبة ؛ فابن خلدون يروى أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانهم لما اختصوا به من شطف العيش فلا ينزع إليهم أحد من الأمم يساهمهم في حالهم أو يأنس بهم « فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة ، واعتبر ذلك في مضر : من قريش ، وكنانة ، وثقيف ، وبني أسد ، وهذيل ، ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شطف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ، وبعدوا عن أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب ، وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل نخم وجذام وغسان وطبيء وقضاعة وإياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم ، ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف وربما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وإنما هذا للعرب فقط »<sup>(١)</sup> . فابن خلدون يتكلم عن هذه الفترة الزمنية التي تناولها ، ويفرق ، أولا ، بين العرب والعجم في العناية بالأنساب ، ويميز ، ثانياً ، وبين المعنين في القفر والمقيمين في الخصب من حيث سلامة الأنساب وصراحتها ، وهو بذلك يؤمن بتسط من النسب بين البادين . ويتقدم بعض الباحثين فيرى أن

الأنساب كانت مجموعات كبرى كعرب الشمال وعرب الجنوب ، ومضر وربيعة ، وأن الروابط بين أفرادها لم تكن أبوة دموية عامة جامعة دائماً ، وإنما كانت محالفات ربطت بين جماعات عربية ، سميت فيما بعد باسم المكان الذي عاشت فيه أو باسم الزعيم الذي انطوت تحت لوائه دون أن ترجع هذه القبيلة كلها إلى أب واحد وأم واحدة<sup>(٢)</sup> . ومعنى هذا أننا نؤمن ببعض الأصول والفروع الكبرى ، أو التي وثقتها الروايات الصحيحة ، وعرفها العلماء المسلمون ، وأقاموا عليها أحكاماً شرعية أصيلة .

وهناك هذا الرأي العملي الذي يعنى رجال التاريخ الأدبي والسياسي وهو يسلم بأصول الأنساب وفروعها دون أن يقف طويلاً عند هذه النظريات العلمية والحقائق التاريخية ، ويبرر إيمانه بأن الحياة الأدبية ، والسياسية ، والاجتماعية إنما جرت على اعتبار هذه الأنساب أموراً مقررة وكانت آثارها ، وحركاتها ، ثمرة لهذه السلاسل التي تمثل ما بين القبائل من وشائج القرابة أو بعيد الصلات ، فأنشئ الشعر ، وقامت الأيام ، وعقدت المحالفات ، وكانت المفاخرات والمنافرات على أساس هذه الأنساب ، سواء ذلك في الجاهلية والإسلام وفي أنحاء البلاد الإسلامية كلها .

ولا نستطيع تفسير المواقف القبلية وعصبياتها ، أو الآثار الأدبية واتجاهاتها دون الاعتراف بما قالت به العرب ، وأقامت عليه نشاطها ، وأنشأت في ظلها شعرها ونثرها ، وأذاعت مفاخرها ، وكونت أحزابها ، حتى قال الأستاذ Nicholson : « يجب أن تقوم دراستنا على إيراد ما كان يعتقد العرب فذاك أولى من العناء في نقد ما كانوا يعتقدون »<sup>(١)</sup> .

(١) Lt. Hist. of Arabs' p. XX نيكلسن  
(٢) راجع مقدمة ميرجليوث لكتاب الأنساب للسمعاني .

ذلك ما كان متصلاً بالجاهلية ، وقد قامت الأيام ، ثم التناقض ، والحوادث على أساس ما اعتقده العرب أو أقروه ، فكانت أيام قحطان وعدنان ، وفي داخل كل منهما ، ونهض الشعر يسجل هذه الأيام ويتناقض حولها ويتخذ معانيه من ملاساتها حتى صارت الأنساب الجاهلية ، في باب التاريخ الأدبي ، حقائق أدبية مقررّة وإن أنكرها علم الأنساب .

ولما جاء الإسلام ، عنيت الشريعة بالأنساب انظام الزواج ، والميراث ، والوقف والرق وما إلى ذلك مما هو متصل بالشعائر الدينية المقدسة<sup>(١)</sup> ثم اتخذها عمر أساساً للعطاء<sup>(٢)</sup> ، وعنى الناس بأنسابهم من ذلك حتى جاء الأشراف وكونوا تقابهم وجعلوا من أغراضها حفظ أنساب الأشراف والقيام على شئونهم والاحتفاظ بمكانتهم الدينية والاجتماعية وبذلك صار علم الأنساب محكم الأصول منظم الفروع إلى حد كبير<sup>(٣)</sup> .

ولكن جانب العصبية لم ينس الأنساب في ظل الإسلام فاستغلها المهاجرون والأنصار ، واستغلتها القبائل في حروب الردة ؛ وحذر عمر اللعب بها في الحياة الإسلامية ، ولكنها منذ عهد عثمان قوى شأنها حتى ذهبت بالخلافة الأولى ، وتنوعت نزعاتها وصارت كوارث سياسية واجتماعية .

ولما نهض الأمويون اعتمدوا على العصبية العربية المختلفة وكانت الأنساب أساس ذلك بين اليمن وعدنان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين قيس وتميم ، وبين العرب والموالي ، وبين الأموية والهاشمية ، وعلى ذلك قام الشعراء يؤرثون العداوات ، ويلهبون

(١) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي ، الباب الأول .

(٢) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٥٣ ، الطبعة الأولى .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٦٤ — ٧١ وأنساب الأشراف للبلاذري .

نارها بالفخر والهجاء ، وكان عصر النقائص الشيط الهام هو عصر الأمويين .  
على أن هذه الأنساب لم تخل من الوضع والاضطراب في العهد الإسلامي ؛  
فقد رأينا الخطيئة يتردد بنسبة بين قبائل العرب وينتمى إلى كل واحدة منها إذا  
غضب على الآخرين ، فعل ذلك مع بني عبس و بنى ذهل ، وقال الأصمعي : « كان  
الخطيئة يضرب بنسبة إلى بكر بن وائل » وسأل أمه عن أبيه فخلطت عليه حتى  
عاش مغموز النسب <sup>(١)</sup> وكان الرجل يرى نسبه رقيقاً فينتسب إلى رجل لم يعقب ،  
كمن انتسب إلى أبي ذر ولم يعقب أو حسان بن ثابت وقد انقرض نسله ، وكرجل  
دخل على المأمون فأعجبه كلامه ، فسأله عن نسبه ، فانتسب إلى عدى بن حاتم  
الطائي لصلبه فعرف المأمون كذبه <sup>(٢)</sup> ونشط الفرس بعد ذلك في إلحاق أنسابهم  
بالعرب ووجدوا من النسابين عوناً لهم على اختلاق الأنساب كهشام بن الكلبي ؛  
فقد سأله خالد بن عبد الله القسري عن جدته أم كرز — وقد كانت بغياً لبني  
أسد تدعى زينب — فقال له : هي زينب بنت عرعة بن خزيمة بن نصر بن قعين  
فسر خالد بذلك ووصاه <sup>(٣)</sup> وقد طلب إليه أبو نواس أن يلحقه بمدحج وكشف بقوله  
عن هذه السنة التي استنها النسابون من خلق الأنساب فخطب الكلبي بقوله :

أبا مُنذرٍ ما بالُ أنسابِ مدحجٍ      مُغلقةٌ دوني وأنتَ صديقي  
فإن تعزمتني يأتك ثنائي ومدحتي      وإن تاب لا يسدد على طريقي

وقال أبو نواس في الهيثم بن عدى :

الحمد لله هذا أعجب العجب      الهيثمُ بنُ عديٍّ صار في العرب  
وقال بشار :

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ٢

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٥٧

(٣) الأغاني ج ١٩ ص ٥٨ بولاق

إِرْفَقَ بِنِسْبَةِ عَمْرٍو حِينَ تَنْسِبُهُ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ قَوَارِيرِ  
مَا زَالَ فِي كَيْرِ حَدَادٍ يُرَدِّدُهُ حَتَّى بَدَأَ عَرَبِيًّا مُظْلَمَ النُّورِ<sup>(١)</sup>  
وروى صاحب الأغاني أن بعضهم تقدم إلى ابن الكلبي في أن يخبر الناس  
عن دِعْبِلِ الشاعر أنه ليس من خزاعة ، فقال له : « يا فاعل ، مثل دِعْبِلِ تنفيه  
خزاعة ؟ والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدعيه ، دِعْبِلِ ، والله يا أخي ،  
خزاعة كلها »<sup>(٢)</sup> وهكذا تعرضت بعض الأنساب للعبث والسخرية .

وكان النسب منذ الجاهلية من المغامر التي يهاجم بها الشعراء خصومهم حين  
يتركون أصولهم إلى غيرهم ، فقد قيل إن عاملة بن سبأ ولدت قبائل اليمن وهم قليل  
وزعم نساب مضر أنهم من ولد قاسط بن وائل قال الأعشى :

أَعْمَلُ حَتَّى مَتَى تَذْهَبُ — يَنْ إِلَى غَيْرِ وَالِدِكَ الْأَكْرَمِ  
وَوَالِدُكُمْ قَاسِطٌ فَارْجِعُوا إِلَى النَّسَبِ الْأَتْلَدِ الْأَقْدَمِ<sup>(٣)</sup>

وفي الإسلام كانت المباحة والمناقضة تتخذ من النسب مادةً بتحقيره أو التشكيك  
فيه ، أو نفي الشاعر عن قومه ، أو اعتباره في رتبة وضيعة ، كذلك كان الفخر  
بالأنساب ومكانة الشاعر من قومه فيها أو قرابته إلى مثل قريش ، وضيعة ، وقيس  
وبيت الخلافة في مضر وهكذا .

ذلك جانب مما يتصل بموضوعنا ، والجانب الآخر أن النقائص بين الشعراء  
قامت كثيراً على الأساس القبلي ؛ فكان لزاماً أن نلتم بأنساب القبائل من هذا  
الوجه ولا سيما أنها كانت أساساً للأيام التي قيل في سبيلها كثير من النقائص .

(١) ذكر أبي العلاء طه حسين ص ١٣٦ والأصنام ص ١٧

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٤٧ بولاق .

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٤٦ .

وأيام العرب وقائعها ، وسُميت بذلك لأن الحروب كانت نهاراً ، واليوم عندهم هو النهار ، من طلوع الشمس إلى غروبها<sup>(١)</sup> وقد أشرنا قبلاً إلى مكانة الأيام في الحياة الجاهلية وما أعقبت من أشعار ومناقضات<sup>(٢)</sup> ولكننا نخصها هنا بشيء من العناية .

الأيام جاهلية وإسلامية وأموية جريدي على تقسيمنا عضور النقائض وقد ذكر الميداني في مجمع الأمثال مائة واثنين وثلاثين يوماً جاهلياً ثم قال : « وهذا الفن لا يتقصاه الإحصاء فاقترنت على ما ذكرت » . وأعقب ذلك بذكر ثمانين يوماً إسلامياً انتهت به إلى أيام المعتصم العباسي ، آخرها يوم ( فِخ ) للعباسيين على الطائبيين ، ويقنصر الميداني على ضبط الأسماء وبيان مسمياتها من جبل ، أو ماء ، أو بئر ، وذكر الغالب والمغلوب ، وإتباع ذلك أحياناً بيت أو بيتين من الشعر قيل في اليوم لشاعر جاهلي أو إسلامي ، دون أن يسرد تاريخ الأيام .

ويظهر أن المصدر الأول لرواية أيام العرب هو كتاب مفصل لأبي عبيدة جمع فيه ألفاً ومائتي يوم ، وقيل إن له كتاباً آخر موجزاً تحدث فيه عن سبعة وخمسين يوماً وعن هذا الكتاب الأول أخذ سائر المؤلفين في الأيام<sup>(٣)</sup> .

وقد أورد أبو عبيدة نفسه ( توفي سنة ٢١٠ هـ ٨٢٥ م ) في شرح نقائض جرير والفرزدق جملة من هذه الأيام بحسب ورودها في المناقضة بين هذين الشاعرين وقد بلغت ثمانية وثلاثين يوماً رئيسياً رتبها في الفهرس ترتيباً هجائياً

(١) لسان العرب مادة يوم .

(٢) راجع في أيام العرب : شرح نقائض جرير والفرزدق ، و تاريخ ابن الأثير ج ١ ، والعقد الفريد لابن عبدبره ج ٣ ، ونهاية الأرب للنويري من ٥ قسم ٤ ونقائض جرير ، والأخطل لأبي تمام ، والأغاني ، وشرح المقضييات لابن الأنباري ، وشرح الحماسة للبريزي ، ومعجم البلدان ، والعمدة لابن رشيق ج ٢ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية عدد ٣ مجلد ٣ من الترجمة العربية ص ١٨٢ .

ناشر النقائض الأستاذ « أنتوني أشلي ييفان » ذلك خلاف المغاورات الواردة أثناء الشرح ، ومعنى هذا أن شرح النقائض لم يستوعب أيام العرب وإن امتاز بتفصيل ما ذكر فيها ، ولم ترتب فيه ترتيباً تاريخياً ولا قبلياً . ونحو ذلك ما ورد في نقائض جرير والأخطل لأبي تمام ، وكان أبو عبيدة مرجعها الأصيل .

أما أحمد بن عبد ربه ، في كتابه العقد الفريد<sup>(١)</sup> فقد أورد الأيام الجاهلية مُصنفة بحسب القبائل ، فذكر حروب قيس ، وحرب داحس والغبراء ، وحروب قيس وكنانة ، وأيام بكر وتميم ، وحرب البسوس ، وأيام الفجار ، مع ذكر جملة صالحة من الشعر والنثر المتصاين بهذه الأيام ، وبعض المشهورين من رجالها ، وهذه الطريقة تنفع مؤرخ القبائل العربية ومكاتها في الناحية الحربية ، ولكنها تفقد الترتيب التاريخي ، فكثيراً ما يتقدم ذكر بعض الأيام على بعض . ولما بدأ الكلام بحروب قيس وبيوم ( مَنَعَج ) لِعَنِيَّ على عبس قال : « قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يوم مَنَعَج يقال له يوم الردهة » فرجعه أبو عبيدة أيضاً . وهذا النظام انتفع به بعض العصريين لما كتبوا في أيام العرب كجورجى زيدان ومحمد جاد المولى وصاحبيه .

ولكن ابن الأثير التوفى سنة ٦٣٠ هـ أورد أيام العرب في الجاهلية<sup>(٢)</sup> محاولاً ترتيبها ترتيباً تاريخياً فتم له بعض ما حاول ، معتمداً على ما وري عن أبي عبيدة ، متحريراً بالإيجاز ولا سيما حين يعرض النصوص الشعرية المتصلة بالأيام إما لشكه في صحتها وإما لشدة عنايته بالجانب التاريخي ، وكتابه يعد من المصادر الهامة لهذه الدراسة المتصلة بالأيام .

(١) ج ٣ ص ٤٣ المطبعة الشرقية ١٣١٦ هـ .

(٢) السكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٦٧ — ٥١٧ طبع أوربة

وسائر المراجع اعتمدت على ما ذكرناهنا إذ كانت هذه أوفى المراجع في هذا الباب .

أما عن أسباب هذه الأيام فقد أشرنا قبلا إلى أنها ترجع إلى عاملين : مادي وأدبي ، وإن كان مردها الأصيل هو سعة السلطان وكسب الاحترام وعزة الجانب أو توفير الحياة المرضية للقبيل ، ومع ذلك فلنذكر هنا بعض الأسباب المباشرة لبعض الأيام توضيحاً لهذا الأصل العام .

من ذلك الطمعُ والرغبةُ في النهب والسبي كيوم ( البردان ) حين انتهر زياد بن الهبولة أمير الشام انشغال كِنْدَةَ وربيعة في الإغارة على البحرين ، فغزا بلادهم وأخذ الحرّيمَ والأموالَ ، ولكن حُجرا الكندي أوقع به انتقاماً منه ، وهذا سبب مادي ناشئ عن عدم قيام نظام محترم لصلات القبائل فيما بينها .

ومنها الغضب للكرامة والشرف ، كيوم ( سَخْبَل ) لما شنَّع بنو عُمَيْلٍ بجعفر ابن عُلْبَةَ لما عرض لنسائهم وكان من ذلك أحداث وثورات ، وكيوم ( طِخْفَةَ ) لما حاول المنذر بن ماء السماء نقل الرداقة من بني يربوع إلى مُجاشع ولكن اليربوعيين انتصروا واحتفظوا بالرِداقة فيهم .

ويكون مردها الوشائيات والعوامل السياسية كما حدث بين سُرحبيل وسلمة ابني الحارث الكندي ، فكان من ذلك يوم ( الكلاب ) الأول ، وقد قوّى الشر بينهما المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة اشتفاء من والدهما الحارث فقد كان من عوامل إقصائه عن عرش الحيرة قبل ذلك .

وربما كان السبب الملاحاة والمراء الذي يوغر الصدور ويشير الحفاظ . وذلك يوم ( ذى طُلُوح ) الذي كان ثمرة الملاحاة بين أبحر بن جابر العجلي وبين زوج أخته عُمَيْرَةَ بن طارق اليربوعي ، ومثله يوم ( المرثوت ) الناشئ عن المفاخرة ونبس

الماضى بين قنص بن الحارث اليربوعي وبجير العامري بعكاظ وفيه انتصرت تميم على عامر .

وكانت حماية الجار من أسباب (الأيام) فحرب (سَمِير) نشأت عن غضب مالك بن العجلان لكعب الثعلبي الذي ياني جاره في المدينة ، وإن كان الأصل الأصيل هو الملاحاة والمفاخرة .

والتأثر والانتقام كيوم (مُبَايِض) حين تأرت شيبان من تميم لنفسها وكذلك يوم (مَنعَج) وفيه تأرت عيس لنفسها من غنى . وكان اتعذر والعنف دافعاً إلى حروب داحس والغبراء .

ومن الدوافع رفع الضيم والتشبث بالحرية كيوم (خَزَار) مُعد على مَذْحِج ، ويوم (حُجْر) لبني أسدٍ على كِنْدَةَ ، وحرب (البسوس) بين بكر وتغلب<sup>(١)</sup> .

ويلاحظ على سَيْر هذه (الأيام) أن الهزيمة كثيراً ما تحل بالعادي الظالم ، وقد يكون شيء من ذلك نتيجة للقصص الذي يساق للعتة والاعتبار ، وشيء منه طبعي إذ يكون المدافع التأثر لنفسه أقوى لاحتوائه بموطنه ، وأحسن لدفع العدوان وحماية الشرف ، وآبى للضم والهوان ، وذلك كأيام : طسم وجديس والزباء وذى قار ، والصفقة ، والبردان ، وحليمة ، وعين أباغ ، وبُعَاث ، وزرود ، وذى طلوح وجَدود ، وظهر الدهناء ، والإياد ، والشباك ، واللوى ، والنقراوات ، وذى نجب وغيرها كثيرة .

وتكون الغلبة للعادي المهاجم للحق التاريخي أو لحبك القصص ، كحرب حاطب ، ويوم سحبل ، ويوم نيتل ، ويوم الوقيط ، وجبلة ، ورحرحان . ويلاحظ أنه في يوم أواره الثاني كان أونه انتصار للغادر الظالم وآخره جزاء

(١) راجع كتاب الأيام التي أشرنا إليها سابقاً لتعرف أخبار ما أوردناه هنا للاستشهاد .

الواشى . وفى يوم ( فيف الرياح ) تسارت عامر ومذحج تقريباً ، والعجيب أن هذا اليوم كان محاولة من بنى عامر أن يأخذوا ثأرهم من بنى الحارث بن كعب ومعهم مذحج ، فهل كانت النتيجة طبيعية إذا كان تساويهما يقابل تساوى الموقفين مادام ثأرا للدماء قديمة ؟ !

أما عن مواقف القبائل فى هذه الأيام فيلاحظ عدة أمور :

أولها : أنه فى أيام العرب والفرس — كالصفقة وذى قار — كانت هناك قبائل عربية فى جانب الفرس مما يدل على أن هذه القبائل تظفر بمزايا مادية من الفرس إذا كانوا غالبين ومن العرب إذا كانوا مغلوبين كذب ولهم سواد العراق وأخذهم العطايا والهبات ، كما يدل على أن الحرب بين الفرس والعرب لم تقع على أساس جنسى أو قومى ، وفى يوم الصفقة كان هوزة الحنفى والى اليمامة مع كسرى على تميم ، وفى يوم ذى قار كان فى صف كسرى النعمان بن زرعة زعيم تغلب والنمر ، وخالد بن يزيد البهرانى زعيم قضاة وإياد ، وإياس بن قبيصة رأس العرب . . كل أولئك ضد بكر بن وائل .

وثانيهما : أن أيام قطحان فيها بينها تدخلت فيها العدنانية ، ففى قوم (البردان) كانت كندة وريبعة فى صف حُجر ، وفى يوم ( الكلاب الأول) كانت قبائل معد بن عدنان قسمة بين أمراء كندة المتحاربين ، وفى ( عين أباغ ) كانت معد مع المنذر ، وفى يوم ( حليلة ) كانت أسرى من تميم معه فيهم شاس أخو علقمة ابن عبدة .

وثالثها : أن أيام القحطانية والعدنانية كانت أحياناً بين ملوك قطحان وقبائل عدنان لأن الآخرين كانوا يشورون على حكاهم اليمنيين إباء للضم والهوان ، وكانت أحياناً بين القبائل كأيام : الكلاب الثانى ، وفيف الرياح ، وظهر الدهناء .

ورابعها: أن سائر الأيام تنضم فيها بعض القبائل إلى قبائل بعيدة في النسب على القرية لخلف أو طمع ، وكنت ترى امتناع الرؤوس عن مطاوعة أفراد وقبائل أخرى على العدوان فطبيء ، رفضت أن تدخل النعمان جبلها خوف كسرى ، والحرث بن ظالم المري لم يظفر بحماية حاجب بن زرارة من بني جعفر مخافة الظلم وهناك رجال صلح معروفون كحرب بن أمية وعبيد الله بن جُدعان أيام الفجار ، وهم بن سنان والحرث بن عوف في داحس والغبراء .

أما عن الأيام نفسها ، فكانت ذات أوضاع شتى :

أولها: ما كان بين العرب والفرس كيومى : الصفقة لكسرى على تميم ، وذى قار لبكر على العجم ، ويذل قصصها على جاه الفرس وضربهم العرب بعضهم ببعض وكيد زعماء العرب لبني جنسهم في بلاط الأكاسرة ، ورهبة في نفوس العرب للفرس .

وثانيها: أيام القحطانيين فيما بينهم كحرب الأوس والخزرج وأيام البردان والكلاب الأول ، وعين أباغ ، وحليمة ، واليحميم ، وكانت معرضا لأطماع الأمراء وعتوهم ، ولظالم الأقربين ، وإحزهم ، وتعارك العرب في سبيل غيرهم من الفرس والروم .

وثالثها: ما كان بين العدنانيين ، وكانت العدنانية تشهد هذه الأيام متفرقة ، وقيل إنها لم تجتمع كلها في الجاهلية إلا ثلاثة أيام فقط : هي يوم البيداء بين تهامة واليمن ، ويوم السلان بين اليمامة واليمن ، ويوم خزاز بين معد واليمن<sup>(١)</sup> وعدا ذلك أيام طخفه وأوارة ، وحجر ، والكلاب الثاني ، وفيه الرياح وظهر الدهناء وعليها سمات الثورة ، والطموح إلى الحرية والاستقلال ، والنقمة على ، عسف الملوك .

(١) المقدم الفريد ج ٣ ص ٦٦ وابن الأثير ج ١ ص ٤ ص ٢٨٤ وأمثال المبداني ج ٢ ص ٢٢٦ والعرب قبل الإسلام ص ٢٢٤

رابعها: أيام العدنانية فيها بينها ، وهذه كانت النظام السائد الكثير الفروع والمشاهد ، كانت في ربيعة كحرب البسوس بين بكر وتغلب . وكانت بين ربيعة وتميم كأيام الوقيط ، وذى طُلُوح ، والإباد ، وعافل والوقبي ، وكانت في قيس كأيام : سَعِيج ، وداحِس والغبراء والرَّم ، واللوى ، وهَرَامِيت ، وبين قيس وكنانة كالكديد ، وبَرْزَة ، والفِجَار ، وبين قيس وتميم ، كأيام رَحْرَحَان ، وشعب جبلة ، وذى نَجْب ، والصَّرَام والمرثوت ، وبين ضَبَّة وغيرهم كالنسار ، والشقيقة ، وبُزَاخَة ، ودارَة مَأْسِل ، والنقيعة وغير ذلك .

ولكن ما الفاصل بين الجاهلية والإسلام في هذه الأيام ؟

لا يمكن جعل ميلاد الرسول عليه السلام حداً فاصلاً بين العهدين لأن ميلاده كان أثناء الجاهلية ولم يغير شيئاً من النظم والتقاليد القائمة بقيت سائرة في طريقها الرتيب حتى زمن البعثة ، على أن الرسول عليه السلام اشترك في بعض أيام العرب قبل الإسلام حينما كان يناول أعمامه النبل يوم عكاظ من حروب الفِجَار الثاني . ولا يمكن عدُّ البعثة المحمدية ذلك الحدّ ، لأن الرسول بقي في مكة يدعو قومه وهم عنه معرضون وقلَّ من آمن به ، وكانت الكثرة العربية في غيها تعيش في الصحراء عيشتها الجاهلة السقيفة لم تغير شيئاً من سلوكها ، ولم تقف أيامها فيما بينها . كذلك لا يمكن جعلُ الهجرة حداً حاسماً بين الأيام الجاهلية والإسلامية ، فبعد الهجرة بدأت الأيام الإسلامية حقاً كأيام بدر ، وأحد ، والخندق وغيرها ، ولكن بجانب هذه كانت الأيام الجاهلية قائمة في أرجاء الجزيرة العربية خاضعة في أسبابها ، وغاياتها ، ونظمها للروح الجاهلي القديم ، فمن أيام العرب بعد البعثة يوم ذى قار بين الفرس وبنى بكر ، ويوم الشَّيْطَان لبكر على تميم ، ويوم قَيْف الريح لمذحج على عامر .

ذلك من وجه ، ومن وجه آخر نجد أياماً متأخرة عن صدر الإسلام أى فى عهد  
الأمويين ، وكانت أياماً جاهلية فى روحها وأحداثها ، وإن اتصلت أسبابها بالحياة  
الإسلامية السياسية والدينية ، كحروب قيس وتغلب ، ولا يمكن عدّها إلا أياماً إسلامية لذلك .  
والرأى ، عندى ، أن كلَّ يوم كان بعيداً عن تأثير الإسلام وتياراته ، ولو  
بعد ظموره ، فهو جاهلى كأيام : الوقى ، وهَرَامِيت ، والشَيْطِين ، وذى قار ،  
وكل يوم متأثر بروح الإسلام وحياته ونظمه فهو إسلامى مهما يكن شنيعاً كيوم  
البشر ، ويوم الحشاك ونحوها .

وتختلف الروايات فى قصِّ ( الأيام ) سواء فى الأسباب والنتائج والملابسات  
الجزئية ؛ من ذلك الخلاف فىمن قطع السلسلة يوم ( المشقَّر ) : أهو خيبرى بن  
عبادة أم عبيد بن وهب من تميم ؟ وفى يوم ( ذى قار ) : من أجار النعمان ، أهو  
هانئ بن مسعود أم هانئ بن قبيصة ؟ وكيف قتل النعمان ، أبا الطاعون أم تحت  
أرجل الفيلة ؟ وصاحب الغرَّين من هو ؟ النعمان بن المنذر على قبرى نديمة أم  
الحارث الأعرج على قبرى ابنه ؟ وما سبب يوم ( خزاز ) أهو عدوان سلمة الكندى  
على زرار أم أسرى مضر عند أحد ملوك اليمى ؟ ومثل هذا الاختلاف طبعى لعدم  
تقييد هذه الأخبار قديماً ، ولتأخر عهد التدوين ، ولتأثير العصبية فى ذلك .

على أننا نجد سمات الفن القصصى شائعة فيما روى حول ( الأيام ) فحرب  
البسوس قصة حماسية والتعقيد واضح فى أيام داحس والغبراء . وأما قصة طسم  
وجديس فتمثل الصراع بين الجبروت للملكى والثورة فى سبيل العرض والكرامة  
وتبع ذلك أنك تجد فى غضون هذا القصص شعراً موضوعاً ، ورجزاً وشعراً أصيلاً  
يلتصق شئ منه فى الفصل التالى . ومن أدلة الوضع ما قال أبو عبيدة : « حدثنى  
المتنجم بن نبهان قال : وقف رؤبة بن العجاج على التيم بمسجد الحرورية ، فقال :

يا معشر تيم ، إني سمعت عند الأمير تلك الليلة ، فتذاكرنا يوم الكلاب .  
- الثاني - فقال : يا معشر تيم إن الكلاب ليس كما ذكرتم فأعفونا من قصيدتي  
صاحبيننا يعني عبد يغوث ووعلة الجرمي ومن قصيدة ابن المكعب صاحبكم وهاتوا  
غير ذلك فأتم أكثر الناس كلاما وهجاء ، قال رؤبة : فأنشدناه في ذلك اليوم  
شعراً كثيراً فجعل يقول هذه إسلامية كلها <sup>(١)</sup> .

وقد مثل القصص كثيراً من شمائل العرب ومزايهم ، ففيه تدابير الحرب ضد  
الفرس ، والعصبية للجنس أحياناً ، والتجسس والاحتيال لنفع القبيل وعصبية  
المرأة لأهلها والانتحار خوف المثلة والالتجاء إلى الأصنام والسكهان ، كما تجدد في  
حروب الفجار ميلاً إلى المصالحة وخلقاً كريماً وميلاً إلى العدالة واحتراماً لمكة  
وقريش ، وقصر الحروب ومسهولة الشعر .

وإذا كانت الأيام تحتاج إلى دراسة خاصة دقيقة فحسبنا هنا هذا الإيجاز  
لنشير إلى أن أكثر النقائض الجاهلية إنما قيلت في ظل هذه الأيام وتحت ألويتها  
كما يمر بك في الصفحات التالية .

— ٣ —

وهناك معرض آخر للنقائض أو مقوّم من مقوماتها وأصل من أصولها العامة ،  
ذلك هو الحياة الاجتماعية الجاهلية وما جرت عليه من أوضاع ، ففي سبيل هذه  
الأوضاع العرفية والعادات المرعية أنشئ قسم من النقائض لأن هذه الأصول لم  
تراع فخرج عليها الناس أو قصروا فيما تستدعي من سلوك فقام الشعر يشور لها أو عليها  
وبذلك كان الحوار والملاحاة ؛ كانت العرب تحب الحروب وتعدّها مجال الفروسية ،  
وامتحان المواهب السامية ، فكان الفرار منها جناً وعاراً ، وكانوا يحبون الحرية

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٧٢ المطبعة المشرقية .

وينفرون من الضيم مهما يلق الفرد في ذلك من نفى وتشريد ، وكانت المرأة ملمس العفة ومغمز الكرامة والشرف فدخلت النقائص في فن النسيب ، وكان وأد البنات موضوع جدال بين العرب والفرس فيما بعد ، كما كان منعه بفخرة من مفاخر آباء الفرزدق أوجده صعصعة خاصة ، كذلك كانت السيادة والنجدة والكرم والغنى من أسباب المجد الذي يفخر به الشاعر ويهجو خصمه بفقده ، وكان العربي الأصيل يتسامى على الدخيل والرقيق ، ويعد نفسه أرفع منه مكانة وأجد أصلاً ، كذلك كان تجويد الشعر من موضوعات النقائص فخرت به مدرسة الحطيئة وكعب بن زهير فاعترضتها مدرسة مُزَرَّد أخو الشماح ، كذلك كان الحلم والوفاء والحزم من الفضائل التي يتجاذبها المتناقضون ، وكان اتصال الشعراء لرؤساء بالأكاسرة أو المناذرة والغساسنة من الميزات التي يتعاطم بها الشاعر ورهطه ، ذلك غير امتياز بعض القبائل بمكانة كقريش ، وقيس عيلان ، ومضر عامة .

هذه التقاليد الاجتماعية كانت مقياس الاعتدال والإنصاف وصحة السلوك واحترام القبيل فكان الشاعر يدعى لنفسه ولقومه التمسك بها ويرمى خصمه بالإعراض عنها وإغفال أمرها ، وقد رأينا أن شاعراً ، هو قريظ بن أنيف ، يهجو قومه بأنهم أخيار يخشون الله ويقابلون الشر بالخير ويتمنى لو كانوا عادين ظالمين ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً تبعاً لتقاليد الجاهليين .

معنى ذلك أن النقائص الجاهلية عاشت في ظل الأيام أولاً ، والتقاليد الاجتماعية ثانياً ، وذلك ما نعرضه في الفصول الآتية :

# الفصل الثالث

## النقائض والأيام القحطانية

— ١ —

إذا جاوزنا ذلك القصصَ الأسطوريَّ المتصل بالعرب البائدة والذي ذكرناه في الفصل الأول متصلاً بطسم وجديس ، فإننا نصل إلى العرب القحطانية مادامنا خاضعين في هذه الدراسة لسلسلة الأنساب كما رواها النسابون ووصلوها بالتاريخ الأدبي ، والسياسي ، والاجتماعي ، وإذا كانت الأيام ، كما قدمنا ، أهم معرض للمناقضة بين الشعراء آثرنا أن تقدمها في الذكر وما اتصل بها من هذا الفن ، وآثرنا أن تقدم منها ما كان متصلاً بالقحطانية سواء أكانت أياماً داخلية بين قبائل قحطان أم أياماً خارجية بينها وبين قبائل عدنان ، إذ كان الجانب القحطاني فيها هو السائد الغالب إما بكثرة عدده وآثاره الشعرية ، وإما بكون السلطان القحطاني متغلباً ذا أثر قوي في سير حوادثها وجليل آثارها ونتائجها . وسنقتصر هنا على الأيام التي وردت في أخبارها نصوص المناقضة بين الشعراء .

وقد أشرنا في الفصل الأول إلى ما كان من حوار بين سلمة بن الحارث الكندي وبين أبي حنث البكري حول قتل شرحبيل بن الحارث الكندي يوم الكلاب الأول ، وإلى ما دار من المناقضة بين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص الأسدي حول مقتل حجر الكندي والد امرئ القيس فلا نعيد ذكره هنا وإيمانشير إلى ما روى أنه جرى بين امرئ القيس وشهاب وعاصم اليربوعيين ، قال امرؤ القيس فيهما : —

أبلغ شهاباً ، بل فأبلغ عاصبا  
أنا تركنا منكم قتلى وجراً  
يمشون في أرحلتنا مُعترفاً  
هل قد أتاك الخبيرُ مالِ  
حى وسبأيا كالعالي  
تِ بِحـوع وهزّالِ  
فرد عليه شهاب بقوله : —

لم تسبنا خيلاً كم فيما مضى  
ذاك ، وم كندية سوداء قد  
فأيقظتنا يا كلن فينا عفرًا  
حتى استفدنا الحى من أهلِ ومالِ  
تستقبل القوم بوجه كالجمالِ  
نطعمها قداً ومحروث الخمالِ  
أيامَ صبحنا كم مملومةً  
كانها قد نُطقت من حزمِ آلِ  
من كل قبءٍ بعدو الوكرى  
إذا توانى الخيل بالقوم الثقيلِ<sup>(١)</sup>

فإذا صح هذا الشعر ألقى ضوءاً على نص آخر هجا فيه امرؤ القيس البراجم  
من بنى تميم ، ويربوعا ، ودارما ، لأنهم تخاذلوا في الدفاع عن شرحبيل عم امرئ  
القيس حتى قتل يوم الكلاب الأول بيد أبي حنّس التغلبي ، وأوله : —

ألا قبّح الله البراجمَ كأنها وجدّحَ يربوعا وعفرَ دارمًا<sup>(٢)</sup>

وقد جمعت المناقضة بين فنى الفخر والهجاء ، ووحدة البحر والقافية ، وتقابل  
المعاني فقد أنكر الثانى على الأول فخره ، وقابل هجاءه بنظيره . وكان الكلاب  
الأول أسامة بن الحارث على أخيه شرحبيل<sup>(٣)</sup> ولشعراء الجاهلية والاسلام شعر  
كثير فيه ، منهم السفاح التغلبي ، واللحّام التغلبي ، وجابر بن حنّى ، وفيه يقول  
الأخطل جرير : —

أبني كلاب إن عمّي اللذا قنلا للملوك وفككا الأغلالا

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٦٤ ط السندونى .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ عن البراجم .

(٣) راجع نقائس جرير والفرزدق ص ٤٥٢ — ٤٦١ .

وأخوها السَّفَاحَ ظَمًا خَيْلَهُ حَتَّى وَرَدْنَا جَيْبَ الْكَلَابِ نِهَالًا<sup>(١)</sup>  
وأما يوم الكلاب الثاني فكان تميم على مذبح وأحلافها<sup>(٢)</sup> وفيه كانت  
المناقضة الرجزية السابقة وشعر موضوع كثير<sup>(٣)</sup>.

وتتقدم فنجد من شعراء طيء، زيد الخيل النبهاني الشاعر الفارس المغوار  
المحصرم غزا في الجاهلية بنى عامر وفيهم غني وأخواتهم الطفاوة فهزمهم واستحرت  
القتل بغني وفيهم يومئذ شعراء وفرسان فمات طيء أيديهم من الغنائم وأسر  
زيد يومئذ الحبيثة فجز ناصيته وأطلقه ، وقال زيد في وقته ببني عامر قصيدته  
التي يقول فيها : —

وخيبة من يُغير على غنيِّ وباهلة بن أعصر والكلابِ  
ثم إن غنيًا جمعت بعد ذلك مع لِفٍّ من بني عامر فغزوا طيئًا في أرضهم  
فغنموا وقتلوا وأدركوا ثأرهم منهم ، وعلى ذلك أجاب طقيّل الغنوي زيداً فقال : —

سَمَوْنَا بِالْجِيَادِ إِلَى أَعَادِ مُغَاوِرَةً بِجِدِّ وَاعْتِصَابِ  
نَوْثِهِمْ عَلَى رُعْبٍ وَشَحْطِ بِقُودٍ يَطْلَعْنَ مِنَ النِّقَابِ

وهي طويلة منها : —

أَخَذْنَا بِالْحَطْمِ مَنْ أَتَاهُمْ مِنَ السُّودِ الْمَزْنَمَةَ الرَّغَابِ  
وَقَتَلْنَا سَرَاتِهِمْ جِيَهَارًا وَجِئْنَا بِالسَّبَايَا وَالنِّهَابِ  
سَبَايَا طِيءٍ أَبْرَزْنَ قَسْرًا وَأَبْدَلْنَ الْقُصُورَ مِنَ الشِّعَابِ  
سَبَايَا طِيءٍ مِنْ كُلِّ حَيٍّ بَعْنَ فِي الْقَرَعِ مِنْهَا وَالنِّصَابِ

(١) عماء كليب ومهلل أو عمرو بن كلثوم وأبو حفش راجع نهائض جرير والأخطل ص ٧٣

(٢) المناقض ص ١٧٣ والعقد القريدي ج ٢ ص ٧٠ .

(٣) العقد القريدي ج ٢ ص ٧٠

وما كانت بناتهم سبياً ولا رغباً يُعدُّ من الرِغابِ  
ولا كانت دماؤهم وفاءً لنا فيما يُعدُّ من العقابِ<sup>(١)</sup>

وقد مضى في الفصل الأول ما كان من ملاحاة بين زيد الخليل وعامر بن  
الطفيل في مقتل (دؤاب) الطائي، وكانت مناقضة لولا اختلاف القافية .

وحدث مرة أن أغارت هوازن ( من قيس عيلان ) على خزاعة ( من  
كهلان ) وهم بالمحصب من مِثْي ، فأوقعوا ببطن منهم يقال لهم بنو العنقاء ، ويقوم  
من بني ضياطر فقتلوا منهم عبداً ، وعوفاً ، وأقرم ، وغُبشان ، فقال الأحبُّ  
العدواني من قيس مفتخراً بذلك : -

غداة التقينا بالمحصب من مِثْي فلاقته بنو العنقاء إحدى العظامِ  
تركنا بها عوفاً وعبداً وأقرما وغُبشان سُوراً للسنور القشاعِمِ

فأجابه قيس بن منقذ الشلولى : -

فخرت بيومٍ لم يكن لك فخره . أحاديث طسم ، إنما أنت حالمٌ  
تفاخر قوماً أطرقتك رماحهم أ كعب بن عمرو، هل يُجَابُ البهائمُ؟  
فلو شهدت أمَّ الصبِيِّينِ حملنا وركضهم لا بيضَ منها المقامِ  
غداة توائمت وأدبر جمعكم وأبنا بأسراكم كأننا صراغِمِ<sup>(١)</sup>

قيس ينكر على صاحبه انتصاره ، وفخره ، ويثبت عكسهما له ولقومه ،  
مع وحدة البحر ، والروى ، وإن اختلفت حركة الروى .

ولعل أهمَّ نقائض القحطانية مادارت حول أيام الأوس والخزرج إذ كانت  
أيامهم من أشهر حروب الجاهلية ولا سيما أنها اقترنت بذكر جماعة من كبار

(١) الأغاني ج ١٣ ص ٤ بولاق

الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، من العرب واليهود .  
والأوس والخزرج قبيلتان من أزد كهلان اليمنية ، رحلتا من الجنوب ، بعد  
سبل العرم واستقرتا أول الأمر عند يثرب ، وكانت هذه مقر اليهود - من بني  
قُرَيْظَةَ ، والنَّضِيرَةَ ، وبني قَيْنَةَاع ، وبني مَاسِلَةَ ، ورَعُورًا وغيرهم - وقد بنوا لهم  
حصونًا يجتمعون فيها إذا خافوا ، فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن  
والحصون إلا أن الغلبة والحكم لليهود الذين نزحوا إلى يثرب هارين من  
الشام أمام الروم ، وكان نزول الأوس والخزرج بِصِرَارٍ - ماء على ثلاثة  
أميال من يثرب - نزلوا في جهنم وضيق في نعش ليسوا بأصحاب  
إبل ولا شاة ، لأن المدينة ليست بلاد نَعَم ، ولبسوا بأصحاب نخل ولا زرع ،  
وليس للرجل منهم إلا الأعذاق اليسيرة يستخرجها من الأرض الموات ، والأموالُ  
لليهود<sup>(١)</sup> . وهنا يجئني ابن الأثير قصة ملك اليهود ( الفِطْيُون ) وأنه كان يسلك  
مع اليهود - وقيل بالأوس والخزرج أيضًا - ما كان يسلك ملك طسم بنساء  
جديس حتى أتى دور أخت مالك بن العجلان ، فأثارت أخاها مالكا فقتل ( الفِطْيُون )  
وفرًا إلى الشام يستنجد العساسنة ، ولكن الأغاني في روايته يصل مباشرة إلى وفود  
مالك هذا إلى أبي جُبَيْلَةَ العسائي الذي يسأله عن قومه فيصف له نكد عيشتهم  
فيأتي أبو جُبَيْلَةَ إلى المدينة ويقتل زعماء اليهود ويمكن للأوس والخزرج في المدينة ،  
ويعيش هؤلاء معًا في سلم وأمن إلى أن كانت حرب ( سُمَيْر ) أولى حروبهم وقاتحة  
البأس بينهم حتى جاء الإسلام فحتم ذلك النضال وأحل محله الوئام والسلام .

وقبل المضي في ذكر أيام الأوس والخزرج نشير إلى جماعة من شعراء اليهود  
لما كان لبعضهم صلة بشعراء النخاض أو مشاركة فيها وفي أيامها ، منهم أوس بن

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٩١ ومهذب الأغاني ج ١ ص ١٠٧

دُنَىَّ القَرَطَى ، والسَمَوَى بن عاديا ، وأبو الزِنَاد ، وكعب بن الأشرف من بنى النَضِير وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في حروب الأوس والخزرج ، والربيع ابن أبي الحقيق من قُرَيْظَةَ وكان أحد الرؤساء يوم (بُعَاث) حليفاً للخزرج هو وقومه<sup>(١)</sup> .

ونذكر هنا من أيام الأوس والخزرج ما كان معرضاً للساقية متحريين الإيجاز قدر المستطاع<sup>(٢)</sup> .

وأول هذه الأيام يوم (سُمَيْر) للأوس على الخزرج ، وسببه أن سميراً الأوسى قتل ضيفاً من بنى ذبيان يدعى كعباً الثعلبي كان نزيبلاً على مالك بن العجلان الخزرجي في خبر طويل فتحارب الحيان ، وقبل الحرب أبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصر مالكاً فقال يذكر ذلك ويشير إلى حذب بنى عمرو بن عوف على سمير ، ويحرض بنى النجار على نصرته من أبيات : -

إِنْ سَمِيرًا ، أَرَى عَشِيرَتَهُ قَدْ حَدَّ بَوَادُونَهُ وَقَدْ أَنْفَوْا  
إِنْ يَكُن الظَّن صَادِقًا بَيْنِي النَّجَّارِ لَا يَطْعَمُوا الَّذِي عُلِفُوا<sup>(٣)</sup>  
لَا يُسَلِّمُونَا لِعَشْرٍ أَبَدًا مَا دَامَ مِنَّا يَبْطِنُهَا شَرَفُ  
وَقَالَ دِرْهَمُ بْنُ زَيْدٍ أَخُو سَمِيرٍ فِي ذَلِكَ : -

يَا قَوْمُ لَا تَقْتُلُوا سَمِيرًا فَإِنَّ الْقِتْلَ فِيهِ الْبَوَارُ وَالْأَسْفُ  
إِنْ تَقْتُلُوهُ تَرِنُ نِسْوَتِكُمْ عَلَى كَرِيمٍ وَيَفْزَعُ السَّلْفُ<sup>(٤)</sup>  
إِنِّي لَعَمْرُ الَّذِي يَحْبُجُّ لَهُ النَّاسُ وَمِنْ دُونِ بَيْتِهِ سَرِفُ

(١) راجع تاريخ الشعر السياسي للمؤلف ص ٨٦ والأغاني وابن سلام

(٢) راجع في هذه الأيام ابن الأثير ج ١ ص ٤٩١ وما بعدها والأغاني ج ٣ ص ١٨ ، دار

الكتب ، والعرب قبل الإسلام ص ٢٥٠ وأيام العرب في الجاهلية ص ٦٢

(٣) أي لا يقبلون الضيم إذا امتحنوا به . (٤) ترن : يرفعن أصواتهن بالبكاء .

يَمِينُ بَرٍّ بِاللَّهِ مُجْتَهِدٍ      يَحْلِفُ إِنْ كَانَ يَنْفَعُ الْحَلِيفُ  
لَا تَرْفَعُ الْعَبْدَ فَوْقَ سُدَّتِهِ      مَا دَامَ مِنَّا يَبِطُّهَا شَرَفُ  
إِنَّكَ لَأَقِ غَدًا غَوَاةَ بَنِي      عَمَى فَاَنْظُرْ مَا أَنْتَ مُزْدَهَفٌ (١)  
فَأَبْدِ سِيَاكَ يَعْرِفُونَ كَمَا      يُبْدُونَ سِيَاهُمْ فَتَعْتَرِفُ (٢)  
وَقَالَ دِرْهَمٌ فِي ذَلِكَ أَيْضًا : —

يَا مَالٍ لَا تَبْغَيْنِ ظُلَامَتَنَا      يَا مَالٍ ، إِنَّا لَمَعْرَةٌ أَنْفُ  
يَا مَالٍ وَالْحَقُّ إِنْ قَنَعْتَ بِهِ      فِيهِ وَفِينَا لِأَمْرِنَا نَصْفُ  
إِنْ بَجَّيْنَا عَبْدًا فَخَذْنَا ثَمَنًا      فَالْحَقُّ يُوفِي بِهِ وَيُعْتَرِفُ  
ثُمَّ اعْلَمَنَّ إِنْ أَرَدْتَ ضَمِيمَ بَنِي      زَيْدٍ ، فَإِنِّي وَمَنْ لَهُ الْحَلِيفُ  
لَأَصْبَحَنَّ دَارَكُمْ بِنْدَى لَجِبِ      جَسُونٍ لَهُ مِنْ أُمَامِهِ عَرَفُ (٣)  
الْبَيْضُ حِصْنٌ لَهُمْ إِذَا فَرَّعُوا      وَسَابِغَاتٌ كَأَنَّهَا النُّظْفُ  
وَالْبَيْضُ قَدْ ثَلَّمْتَ مَضَارِبُهَا      بِهَا نَفُوسُ الْكُمَاةِ تُخْتَطَفُ  
كَأَنَّهَا فِي الْأَكْفِ إِذْ لَمَعَتْ      وَمِيضُ بَرٍّ يَبْدُو وَيُنْكَسِفُ

فأبيات مالك بن العجلان تتضمن غبطة سُمير على نصر قومه له ، ورجاء  
بني النجار أن ينصروه هو ، وخلاف بني الحارث بن الخزرج عليه ، واتهام كل من  
بني جحجج وبني زيد الآخر بقتل حليف مالك الذي أبي أن يقبل فيه دية  
الحليف ، وهي نصف دية الأصيل ، ثم شجاعة هذين الرهطين من الأوس .  
وقد ردّ عليه درهم أولاً ، بأن قتل سُمير بحليف مالك يعقب شراً كثيراً ،

(١) مزدَهف : مقدم عليه من الشر .

(٢) كان مالك بن العجلان إذا شهد الحر بغير لباسه وتكررت لا يعرف في قصده

(٣) عَرَف : صوت .

ويقسم أنه لا يضع الخليف في مكانة الأصيل ، ويهدّده بما يلقي من الأوس ، فلم يلتقيا إلا في مسألة الدية ، وكان ردّ درهم أقوى لاشتماله على التهديد والوعيد . ثم ردّ عليه نائياً بنصحه ومحاولة إرجاعه إلى الهدى والرشاد ، وبتهديده بحرب طاحنة إن لم يلزم جادة الصواب ، وكان درهم يرد على سلوك مالك وآرائه الواردة في سياق القصص النثرى أكثر من رده على شعره .

وكان هذه الملاحظة الشعرية لما بقيت مروية أثارت في نفسى شاعرين تأخرت بهما الأيام فلم يدركا هذا اليوم ، حماسة فتناقضا حوله من الوزن والقافية نفسها ، هما قيس بن الخطيم الأوسى وحسان بن ثابت الخزرجى ، فقال قيس بن الخطيم قصيدته المشهورة :

ردّ الخليطُ الجِمالَ فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا

وهى طويلة يقول فيها بعد النسيب مما يتصل بهذا اليوم : —

أبلغَ بنى جَحْجَجِي وإخوتهم زِيداً بأننا وراءهم أنفُ

وأنا دون ما يسومهم ال أعداء من ضيمِ خُطّةِ نُكفُ

نَفلى بِجِدِّ الصفيحِ هامهمُ وقلينا هامهم بها جنفُ

إنّ بنى عمّنا طغوا وبغوا ولجّ منهم في قومهم سرفُ (١)

فرد عليه حسان بن ثابت بقصيدته التي مطلعها : —

ما بالَ عَيْنى دُموعها تَكِفُ من ذِكرِ خَودِ شَطَّتْ بها قَدَفُ

وبعد نسيب وفخر قصيرين يقول فيما يتصل بالموضوع من أبيات : —

بَلِّغْ عَنى النبيتِ قافيةً تُدِلُّهمُ ، إنهم لنا حَلَفوا (٢)

باللهِ جُهْداً لِنقتلنكمُ قنلا عنيفاً والخيلُ تنكشِفُ

أو ندعُ في الأوسِ دَعوةَ هَرَباً وقد بدا في الكنية النصفُ

(١) الديوان ص ١٦ طبع أوربة والأغاني ج ٣ ص ٢٣ دار الكتب مع اختلاف في الروايتين .

(٢) النبيت بطن من الأوس .

كُنْتُمْ عَبِيداً لَنَا نَحْوَكُمْ<sup>(١)</sup>      مَن جَاءَنَا وَالْعَبِيدُ تُضْطَعَفُ<sup>(٢)</sup>  
 كَيْفَ تَعَاظُونَ مَجِدْنَا سَفَهَا      وَأَنْتُمْ دِعْوَةٌ لَهَا وَكَفُ<sup>(٣)</sup>  
 هَلَّا غَضِبْتُمْ لِأَعْبِدُ قَتَلُوا      يَوْمَ (بُعَاثٍ) أَظْلَمَهُمْ ظَلْفُ<sup>(٤)</sup>  
 نَقَتْلَهُمْ وَالسُّيُوفُ تَأْخُذُهُمْ      أَخْذًا عَنِيفًا وَأَنْتُمْ كُشْفُ<sup>(٥)</sup>  
 إِنْ سُمِيرًا عَبْدٌ طَغَى سَفَهَا      سَاعِدَةٌ أَعْبُدُ لَهُمْ نَظْفُ<sup>(٥)</sup>

معاني قيس قائمة على الحماسة ، والوعيد ، والهجاء بالبغى ، والطغيان ، والإسراف في التجنى ومجاوزة الحد ، فرد عليه حسان ساخرًا من وعيده ، مفتخرًا بقومه ، هاجيًا خصومه بأنهم دونهم في الشرف ، ذاكراً من قتلوا منهم يوم (بُعَاثٍ) رامياً سميراً وقومه بالطغيان والسفاهة والطيش ، فسلك في نقضه مسالك القلب ، والموازنة ، وزاد الهجاء بأن خصومه خول خدام فتحققت المناقضة وإن كان سببها قديماً . ومن يدري فلعل المناقضة الأولى من وحي اثنائية ومن آثارها فوضعت وضعاً . ويلاحظ أن موقف الخزرج كان ضعيفاً في الماضي ، عملياً بالهزيمة في هذا اليوم ، وأديبا بشعر مالك بن العجلان ، ولكنه اكتسب قوة أدبية أخيراً لما تناوله حسان ، على أن المناقضة هنالم تخل من شعور القربى والأسف ، على تخطيها . ومن أيامهم حرب كعب بن عمرو ، للخزرج على الأوس ، وذلك أن كعب بن عمرو المازني الخزرجي تزوج امرأة من بنى سالم من الخزرج ، وكان يختلف إليها ، فقصد له رهط من بنى جَحْجَجِي من الأوس بمرصدٍ فضربوه حتى قتلوه

(١) نحواكم نجعلكم خدماً . تضطعف من الضعف .  
 (٢) دعوة منهم نسيه والوكف العيب والقص . (٣) ظلف : شدة .  
 (٤) كشف : منهزوم . (٥) نظف : قرط . راجع ديوان حسان ص ١٨٣  
 طبة البرقوق .

أوكادوا ، فلهما بلغ ذلك أخاه عاصم بن عمرو خرج ، وخوج معه بنوا النجار ،  
وآذن بنى جحجبي بحرب فتلاقوا بالرُحابة ، حصن بالمدينة ، واقتتلوا قتالا  
شديداً وانهزمت بنو جحجبي ، وكان معهم أحيحة بن الجُلاح الأوسى ، فطلبه  
عاصم فأدركه وقد دخل حصنه فرماه بسهم فوقع في باب الحصن ورجع عاصم  
وأصحابه ومكثوا أياماً ، ثم إن عاصم طلب أحيحة ليلاً ليقتله في داره ، وبلغ  
أحيحة ذلك فقال : —

تُبِتُّ أَنْكَ جِئْتَ تَه	رى بين دارى والقباية
فلقد وجدت بجانب الضحى	يان شباناً مُهَابَه
فَتِيَانَ حَرْبٍ فِي الْحَدِي	د وشامرين كَأَسَدٍ غَابَه
هُمُ نَكَبُوكَ عَنِ الطَّرِي	قِ فَبِتَ تَرْكَبُ كُلَّ لَابَه
أَعْصِمُ لَا تَجْزَعُ فَإِنَّ الْح	رَبَّ لَيْسَتْ بِالذُّعَابَه
فَأَنَا الَّذِي الَّذِي صَبَّحْتُمْ	بِالْقَوْمِ إِذْ دَخَلُوا الرُّحَابَه
وَقَتَلْتُ كَعْبًا قَبْلَهَا	وَعَلَوْتُ بِالسَّيْفِ الذُّوَابَه

و بلغ عاصم قوله فأجابه : —

أَبْلَغُ أَحِيحَةَ إِذْ عَرَضُ	تَ بَدَارِهِ عَنِّي جَوَابَه
وَأَنَا الَّذِي أَعْجَلْتُهُ	عَنْ مَقْعَدِ أَلْهَى كِلَابَه
وَرَمَيْتُهُ سَهْمًا فَأَخَذَ	طَاهُ وَأَغْلَقَ ثُمَّ بَابَه (١)

تناول الرد معنى هجوم عاصم على خصمه بالسهم وإخطائه ، فعله أحيحة  
بمخوف عاصم شباب الأوس وفسره عاصم بفرار أحيحة واحتمائه بحصنه ، ولم أجد

للآن سائر قطعة عاصم التي تتصل بالحرب . ودارت المناقضة هنا بطريقة التوجيه ، فكل فسر الحادث بوجه يلائم موقفه .

ثم حرب السرارة ، يوم عضَّ الحيين جميعاً شرُّه ، وذلك أن رجلاً من بني الحارث بن الخزرج لقي رجلاً من الأوس خارجاً من بئر أريس — بئر معروفة قريبة من مسجد قباء عند المدينة — من عند ظئره<sup>(١)</sup> ومع الخزرجي نبل له فرماه الخزرجي فقتله ، فلما بلغ قومه قتلُ صاحبهم خرجوا إلى الذي قتل صاحبهم ليلاً فقتلوه بيئاتاً<sup>(٢)</sup> وكان لا يقتل رجل في داره ولا في نخله ، فرأت الخزرج مقتل صاحبهم ، فقالوا : والله ماقتل صاحبنا إلا الأوس ، فخرجوا ، وخرجت الأوس فالتقوا بالسرارة<sup>(٣)</sup> فاقتتلوا بها أربعاً حتى نال كل فريق من صاحبه فقال قيس ابن الخطيم في ذلك : —

تَرَوْحُ مِنَ الحَسَنَاءِ أَمْ أَنْتِ مُعْتَدِي      وَكَيْفَ انْطِلاقُ عَاشِقٍ لَمْ يُزَوِّدِ  
ومنها بعد النسيب :

أَلَا إِنْ بَيْنَ الشَّرْعِيِّ وَرَأَيْجِ      ضَرَاباً كَتَخْدَامِ السِّيَالِ المَعْضِدِ  
لَهَا حَائِطَانِ ، المَوْتُ أَسْفَلَ مِنْهُمَا      وَجَمْعٌ مَتَى يَصْرُخُ بِبِئْرٍ يُصْعِدِ  
تَرَى اللَّابَةَ السُّودَاءِ يَحْمَرُّ لونها      وَيَغْبِرُّ مِنْهَا كُلُّ رَبْعٍ وَقَدْفِدِ  
ويستمر مفتخراً بخلقه ملاماً بشيء من الحكم وينهى قصيدته بقوله : —  
فَمَنْ مُبْلَغٌ عَنِ شَرِيدِ بْنِ جَائِرٍ      رَسولاً إِذَا مَا جَاءَهُ وَابْنِ مَرْتَدِ  
فَأَقْسَمْتُ لَا أُعْطِي يَزِيدَ رَهِينَةً      سِوَى السِّيفِ حَتَّى لَا تَنْوَأَ لَهُ يَدِي  
فَلَا يُبْعَدَنَّكَ اللهُ عَبْدُ بْنُ نَافِدٍ      وَمَنْ يَعْلَهُ رُكْنٌ مِنَ التُّرْبِ يَبْعَدِ

(١) الظئر المرضة ولد غيرها . (٢) قتله بيانا : أى بالليل بفتنة .

(٣) وسط الوادي .

فرد عليه حسان بن ثابت بقوله :  
لعمري أبيتك الخير يا شعث ما نبا  
لساني وسيفي صارمان كلاهما  
على لساني في الخطوب ولا يدي  
ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي

وبسير مفتخراً بشيعة وفضائله وسراة قومه حتى يقول : -

فلا تعجلن يا قيسَ واربع فانما  
قصاراك أن تلقى بكل مهتد  
حسام وأزماج بأيدي أعزة  
متى ترهم يا ابن الخطيم تبدد  
ليوت لها الأشبال تحمي عرينها  
مداعيس باخطي في كل مشهد  
فقد ذقت الأوس القتال وطردت  
وأنت لدى الكنات في كل مطرد  
فناغ لدى الأبيات حورانواعماً  
وكحل ما قيك الحسان بأئمد  
فتكم عن العلياء أم لثيمة  
وزند متى تقدح به النار يصلد<sup>(١)</sup>

نسيب قيس لم يقابله نظيره عند حسان ، وكلاهما فخر بنفسه على طريقة  
المقابلة ، وقد قال في الحكمة على طريق المباراة والتحدى ، وأنهى قيس قصيدته  
بالوعيد ، وحسان أمهاها بتهديد قيس ، وهجاء قومه الأوس ، ورمى قيس باللؤم ،  
والضعة ، وخصال النساء . وظاهر أن المناقضة هنا كانت لينة لولا عنف حسان في  
تقيضته عنفاً نسبياً بما هدد وهجا صريحاً ، وعلى كل فلا تزال النقائض بين الأوس  
والخزرج بريئة من الفحش والإسفاف .

وكان يوم قارع بسبب غلام قضاعي أصابه رجل من بني النجار ، وكان عم  
الغلام جاراً لمعاذ بن النعمان الأوسي ، فأرسل معاذ إلى بني النجار أن ادفعوا إلى  
دية جاري أو ابعثوا إلى بقاتله أرى فيه رأيي ، فأبوا أن يفعلوا ، فقاتل رجل من

(١) راجع ديوان حسان ص ١٢١ — ١٢٣ وديوان قيس بن الخطيم ص ٢٠ — ٢٢  
والكامل لابن الأثير ج ١ ص ٤٩٧ والمصدر الأخير بعكس الترتيب .

بنى عبد الأشهل : والله إن لم تفعلوا لا تقتل به إلا عامر بن الإطنابة ، و عامر  
من أشرف الخزرج ، فبلغ ذلك عامراً فقال من أبيات : -

ألا من مبلغ الأكفاء عني      وقد تُهدى النصيحة للنصيح  
فانكم وما ترجون شطري      من القول المزجي والصريح  
سيندم بعضكم عجلاً عليه      وما أثرُ اللسان إلى الجروح  
أبت لي عزتي وأبي بلائي      وأخذى الحمد بالثمن الربيح . الخ  
فقال الربيع بن أبي الحقيق اليهودي في عراض قول عامر بن الإطنابة : -

ألا من مبلغ الأكفاء عني      فلا ظلمٌ لدى ولا افتراء  
فلست بغايظ الأكفاء ظمماً      وعندى للملامات اجترأ  
فلم أر مثلاً من يدنو لخسفٍ      له في الأرض سير واستواء  
وما بعض الإقامة في ديار      يُهان بها الفتى إلا عناء

ويستمر في حكمه إلى آخر القصيدة<sup>(١)</sup> .

فمع وحدة السبب ، والبحر ، واختلاف القافية ، يظهر أن المناقضة هنا كانت  
نوعاً من تصوير الحماسة ، وعزة النفس عند الشعارين دون أن يلتجأ النحام أصريحاً  
أو يتسابا ، هذا إلى مشاركة اليهود في هذا الفن . ثم التقى الحيمان عند فارغ ، وهو أطم  
حسان بن ثابت ، واشتدت بينهما الحرب حتى حمل دية الغلام عامر بن الإطنابة .

ثم حرب حاطب للخزرج على الأوس بينها وبين يوم سُمير نحو مائة سنة ،  
ويقول ابن الأثير : إن حرب حاطب آخر وقعة بينهم إلا يوم ( بُعاث ) حتى جاء  
الإسلام ، وبعد حاطب أيام فرعية له ، وحاطب هو ابن قيس من بني أمية بن  
زيد بن مالك الأوسي كان له نزول ذبياني فعدا يوماً إلى سوق بني قينقاع فراه

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٥٠١ .

يزيد بن الحارث المعروف بابن فسحُم الخزرجي فحمل رجلاً يهودياً فكسعه فقتله  
حاطب فجري ابن فسحُم خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله فلقى رجلاً  
من بني معاوية فقتله، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج فكان الظفر يومئذ للخزرج.  
وكانت مناقضة بين قيس بن الخطيم وعبد الله بن رَواحة حول هذا اليوم

ويوم (بُعَاث) معاً<sup>(٢)</sup> فقد قال قيس قصيدته المشهورة :

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَأَطْرَادِ الْمَذَاهِبِ      لِعِمْرَةٍ وَحَشًّا غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ  
دِيَارُ التِّي كَادَتْ وَنَحْنُ عَلَى مِئِي      تَحْمَلُ بِنَا لَوْلَا نَجَاهِ الرَّاكِبِ

و بعد النسيب ينتقل إلى الحماسة المتصلة بالموضوع فيقول :

دَعَوْتُ بَنِي عَوْفٍ لِحَقْنِ دِمَائِهِمْ      فَلَمَّا أَبَوَا سَامَحْتُ فِي حَرْبِ حَاطِبِ  
وَكَانَتْ أَمْرًا لَا أُبْعَثُ الْحَرْبُ ظَالِمًا      فَلَمَّا أَبَوَا أَشْعَلْتُهَا كُلَّ جَانِبِ

ويشير إلى من انضم إليهم من اليهود فيقول :

أَتَتْ عُصَبَ مُلْكَاهَنِينَ وَمَالِكِ      وَثَعْلَبَةَ الْأَثْرِينَ رَهْطِ ابْنِ غَالِبِ<sup>(١)</sup>  
رِجَالٌ مَتَى يُدْعَوْنَ إِلَى الْمَوْتِ يُرْقَلُوا      إِلَيْهِ كَأِرْقَالِ الْجَمَالِ الْمُصَاعِبِ<sup>(٣)</sup>

ثم ينتقل إلى يوم (بُعَاث) فيقول :

وَيَوْمَ (بُعَاث) أَسْلَمْتَنَا سِيوفَنَا      إِلَى نَسَبِ فِي جِذْمِ غَسَانِ ثاقِبِ  
يُعَرِّينَ بَيْضًا حِينَ نَلْقَى عَدُونَا      وَيُعْمَدْنَ حُمْرًا نُحَالِاتِ الْمُضَارِبِ

ويذكر بني عوف وما حل بهم حتى يقول :

فَهَلَّا لَدَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ صَبْرْتُمْ      لَوَقَعْتِنَا وَالْبَأْسُ صَعْبُ الْمَرَاكِبِ  
ظَارِنَاكُمْ بِالْبَيْضِ حَتَّى لِأَنْتُمْ      أَذَلُّ مِنْ السُّقْبَانِ بَيْنَ الْخَلَائِبِ

(١) راجع ديوان قيس ص ١٠ و ٣٦ .

(٢) السكاهنان من قريظة أو من النضير أيضا .

(٣) أرقل البعير نفس رأسه وارتفع عن الزميل والمصعب الذي لم يمسه حبل ولم يذال .

فأبنا إلى أبائنا ونسائنا وما من تركنا في (بُعْث) بآب  
فأجابه عبدُ الله بن راحة الحارثي الخزرجي :

أشأقتك ليلي في الخليط المجانبِ نعم، فرشاشُ الدمع في الصدرِ غالي  
وبعد النسيب ينتقل إلى الفخر بقومه والحماسة فيقول :

إذا عيّرتُ أحسابُ قوم وجدتنا ذوى نائل فيها كرامِ المضاربِ  
نحامي على أحسابنا بتلادنا لمفتقر أو سائل الحق راغبِ  
وأعمى هدته للسبيل خلومنا وخصم أقمنا بعد ما لجّ شاغبِ  
ومعتركِ ضنك ترى الموت وسطه مشينا له مشى الجمال المصاعبِ

ثم ينهى قصيدته بقوله يخاطب قيساً وقومه : —

فخرتم بجمع زاركم في دياركم تغلغل حتى دُوفعوا بالرواجب  
أباح حصوناً ثم صعد بيتي مطية حتى في قريظة هاربِ

فإذا تركنا النسيب ، وجدنا حماسة بحماسة وهي مناقضة عامة دون التحام  
وسباب ، حتى إذا وصلنا إلى آخر قصيدة ابن راحة رأيناه يفخر بانتصار قومه  
على الأوس واليهود على الرغم من اصطناع قيس الخزم والنصح في شعره وادعائه  
الظفر ، فالمناقضة قائمة على القلب والموازنة .

وإذا كان يوم الربيع من أعقاب (حاطب) كان يوماً شديداً اقتتل فيه  
الحيان حتى كاد يُفنى بعضهم بعضاً فانهزمت الأوس وتبعتها الخزرج إلى النور  
وأبت أن تصالحهم ثم كفت عنهم على ما بينهم من العداوة ، وفي هذا اليوم يقول  
حسان بن ثابت مشتبهاً بليلي بنت الخطيم في مطلع قصيدته : —

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها  
تذكرت ليلي وأنى بها إذا قطعت منك أقرانها

وبعد النسيب يقول مفتخرًا على الأوس :-

ويثربُ تعلمُ أنّا بها إذا التبس الأمر ميزانها  
ويثربُ تعلمُ أنّا بها إذا قحط القطرُ نواًنها  
ويثربُ تعلمُ أنّا بها إذا خافت الأوس ، جيرانها  
ويثربُ تعلمُ أنّ النبي ت عند المزهز ذلّانها<sup>(١)</sup>  
متى ترنا الأوس في بيضنا نهرُ القنا تحبُ نيرانها  
وتعطِ القيادَ على رغمها وينزلُ من الهام عصيانها

فأجابه قيس بن الخطيم مشبهاً بعمرة زوج حسان بن ثابت :-

أجددُ بعمرة غنيانها قهجرَ أم شأننا شأنها  
وإن تُمس شطت بها دارها وبلح لك اليوم هجرانها

ثم ينتقل إلى الفخر على الخزرج فيقول مناقضاً حسان بن ثابت :-

ونحنُ الفوارس يوم الرّيبم قد علموا كيف فرسانها  
جنبنا الحرابَ وراء الصر يخ حتى تقصف مرانها  
ولاقى الشقاء لدى حربنا دُحى وعوف وإخوانها  
ولولا كراهةُ سفكِ الدماء لعادَ ليثربَ أديانها<sup>(٢)</sup>

ويثربُ تعلمُ أنّ النبيتَ راسِ بيثربَ ميزانها  
حسانُ الوجوه حداد السيو في يتندرُ المجدَ شبانها  
وبالشوطِ من يثربِ أعبدُ ستهلكُ في الحمر أثمانها  
يهونُ على الأوس أثمانهم إذا راح يخطر نشوانها  
أتهمُ عرّانينُ من مالكِ سراعُ إلى الروع فتيانها

(١) النبيت هو عمرو بن مالك بن الأوس . ذلّانها : أدلاؤها . المزهز : الشدائد

(٢) الأديال العادة .

وقد علموا أن ما فلهم حديدُ النبيتِ وأعيانها<sup>(١)</sup>  
وأول ما جدّ في هذه المناقضة دخول النسيب في عناصر النقائض كما رأيت ،  
ثم نجد حسان يفخر على الأوس ويهجوها بالخضوع والمذلة ، فيفخر عليه قيس  
بالظفر والحزم والشجاعة ، فكانت المناقضة من باب الموازنة والقلب دون سباب .  
وأما يوم البقيع ( بقيع العرقد ) فكان للأوس على الخزرج وفيه يقول عبيد بن ناهد  
الأوسى من قصيدة :

لما رأيتُ بني عوف وجمعهم      جاءوا وجمع بني النجار قد حفلوا  
دعوتُ قومي وسهلتُ الطريق لهم      إلى المكان الذي أصحابه حللوا  
جادت بأنفسها من مالك عصبٌ      يوم اللقاء فلا خافوا ولا فشلوا  
وعاوروكم كثوس الموت إذ برزوا      شطر النهار وحتى أدبر الأصلُ  
فأجابه عبد الله بن رواحة الحارثي الخزرجي :

لما رأيتُ بني عوف وإخوتهم      كعبا وجمع بني النجار قد حفلوا  
قوما أباحوا حمام بالسيوف ولم      يفعلُ بكم أحدٌ مثل الذي فعلوا  
قيل وكان رئيس القوم يومئذ أبو قيس بن الأسلت فقام في حربهم وهجر  
الراحة فشحب وتغير ، وجاء يوماً إلى امرأته فأنكرته حتى عرفته بكلامه ، فقالت  
له : لقد أنكرتك حتى تكلمت ، فقال قصيدته المشهورة :

قالت - ولم تقصد لِقيل الخناً -      مهلاً فقد أبغتَ أَسْماعى<sup>(٢)</sup>  
ويوم مُضرس ومُعَبَس وهما حائطان كانا لدُحينة إلى آطام بني عدى بن

(١) راجع ديوان حسان ص ٤١٦ وديوان قيس ص ٧ وابن الأثير ج ١ ص ٤٩٩ و ٥٠٤ والأغاني ج ٣ ص ١٢ دار الكتب .

(٢) راجع ابن الأثير ج ١ ص ٥٠٥ وأيام العرب في الجاهلية ص ٨٢ والأغاني ج ١٥ ص ١٦١ بولاق .

النجار ، وكان يوماً للخزرج على الأوس قال فيه قيس بن الخطيم قصيدته :  
ألم خيال ليلى أم عمرو ولم يلحيم بنا إلا لأمر  
ألا أبلغ بنى ظفر رسولاً فلم ندلل بيثرب غير شهر  
القصيدة ، فرد عليه عبد الله بن رواحة بقوله :

كذبت لقد أقت بها ذليلاً تُقيم على الهوان بها وتسرى<sup>(١)</sup>  
وفي ابن الأثير أن حسان قال يفخر بما أصاب قومه من الأوس ذلك اليوم -  
وفي ديوان حسان أن هذا الشعر قيل في هجاء ابن الأست - :  
ألا أبلغ أبا قيس رسولاً إذا ألقى لها سمعاً تبين  
نسيت الجسر يوم أبي عقيل وعندك من وقائعنا يقين  
وأبو عقيل الأست رئيس الأوس قتل في ذلك اليوم الذي يسمى أيضاً  
يوم الجسر .

وعلى كل فالقصيدة قيلت بعد يوم بعث وهو متأخر عن يومنا هذا .  
وفي ديوان قيس بن الخطيم<sup>(٢)</sup> مناقضة بينه وبين أنس بن العلاء أخي بني  
الحارث بن الخزرج ، ويظهر أنها قيلت يوم حاطب ، وآية ذلك أن لفظ ( الرذم )  
ورد في شعر قيس ، وهو جسر ردم بني الحارث بن الخزرج حيث التقى الحيان  
يوم حاطب كما يقول ابن الأثير ، فقال قيس .

ألا أبلغنا ذا الخزرجي رسالة  
فإنا تركناكم لدى الرذم غدوة  
صبحناكم ، منا به كل فارس  
أنذركم أمراً لم تنله وإنما  
رسالة حق لست فيها مُقنّداً  
فريقين مقتولاً به ومطرداً  
كريم النشأ يحمى الذمار ليحمداً  
تناول سجل الحرب من كان أنجداً

فَذُقْ غِيبَ مَا قَدَّمْتَ إِنِّي أَنَا الَّذِي      صَبَحْتُمْ فِيهِ السِّمَامَ بِبِرْجُدَا  
وَنَحْنُ حُمَاةُ الْحَرْبِ لَيْسَتْ تُضْرِنَا      نَسوقُ خَيْسًا كَالْقَطَا مُتَبَدِّدَا  
فَأَجَابَهُ أَنَسٌ :

أَلَمْ خِيَالٌ مِنْ أُمَيْمَةَ مَوْهِنَا      فلمْ أَغْتَمِضْ لَيْلَ التَّمَامِ تَهْجُدَا  
وَكَانَ يَرَاهَا الْقَلْبُ جِيدًا تَرْتَعَى      سَوَائِلُ يُبْنِ فَالْحِيَاءِ فَارْتُدَا  
وَنَحْنُ حُمَاةٌ لِلْعَشِيرَةِ أَيُّهَا      نَكُنْ لَا يُبَالُوا أَنْ يَغْيَبُوا وَنَشْهَدَا  
نُحَامِي عَلَى جِذْمِ الْأَعَزِّ بِمَالِنَا      وَنَبْذُلُ حُرَّاتِ النُّفُوسِ لِنُحْمَدَا  
صَبَحْنَاهُمْ عِنْدَ الْقِتَالِ بَغَارَةٍ      فَأَصْبَحَ قَيْسٌ بَعْدَهَا مُتَلَدِّدَا  
يَعِضُّ عَلَى أَطْرَافِهِ كُلَّمَا بَدَا      لَنَا فَارِسٌ يَبْغِي الْقِتَالَ تَنْجُدَا

كلا الشاعرين يفخر بقومه ، ويهجو صاحبه شامتا ، وإن امتازت قطعة  
أنس بالنسيب وادعى كل أن النصر لقومه .

وإذا كانت هذه الدراسة قد اقتضت الإشارة إلى بعض أيام القحطانية  
والعدنانية فيما مضى ، فلنتقدم الآن إلى الإشارة إلى سائر ما ورد فيها شواهد  
لفن المناقضة .

من ذلك يوم ( سَجْبِل ) لبني الحارث بن كعب من كهلان على بني عُقَيْل  
ابن كعب من قيس عيلان ، وهذا اليوم وإن حدث في الإسلام إلا أن روحه  
جاهلي ، لذلك عدّه الميداني بين أيام الجاهلية ، وخلاصة القول فيه ، أن جعفر بن  
عُلبَةَ الحارثي كان يزور نساء بني عُقَيْل بن كعب فأذاه العقيليون ثم خلوا سبيله ،  
ولكنه مثل بأربعة عشر فارساً من بني عُقَيْل بوادي سَجْبِل وقتلهم ، واستعدت  
بنو عُقَيْل عليه التّسرى بن عبد الله الهاشمي عامل مكة لأبي جعفر المنصور فحبس

جعفر بن علبة ثم قتله ، وقيل في ذلك شعر منه ما قاله أبوه علبة لامرأته أم جعفر  
قبل أن يقتل ابنها :

لعمرك إن الليل يا أم جعفر عليّ ، وإن عللتني ، لطويلُ  
أحاذرُ أخباراً من القوم قد دنت ورجعةً أنقاضٍ لهنّ دليلُ  
فأجابته امرأته فقالت تسفه خطته وتقصيرد في حق ابنه :

أبا جعفر سلّمت للقوم جعفرًا فمت كدأً أو عيش وأنت ذليلُ  
وروى أن بنتاً ليحيى بن زياد الحارثي حضرت الموسم في ذلك العام لما قتل  
فكفته واستجدت له الكفن وبكته هي وجميع من كان معها من جواربها  
وجعلن يندبنه بأبياته التي قالها قبل قتله ومنها :

ألا ، لا أبالي بعد يومٍ بسحبِ إذا لم أعذب أن يجيء حاميها  
ركتُ بأعلى سحبلٍ ومضيقه مُسراق دَمٍ لا يبرح الدهرَ ثاويها  
شفيتُ به غيظي وحربَ مواطني وكان شفاءً آخر الدهر باقيها  
أرادوا لئيشنوني فقلت تجنبوا طريق ، فإلى حاجةٍ من وراثيها  
كان العقبيلين يومَ لقيتهم فإراخُ قطا لاقين صقرا يمانيا  
ركناهم صرعى كأن ضجيجهم ضجيجُ دباري النيب لاقت مداويا  
ولم أترك لي ريبةً غير أني وددتُ (معاذاً) كان فيمن أتانيا  
شفيتُ غليلي من (خشينة) بعدما كسوت الهديل المشرفي اليمانيا  
أحقا عباد الله أن لست راثياً صحارى نجد والرياح النواريا  
ولا زائراً شَمَّ العرايين تنمى إلى عامر يحلن رملا معاليا . .

فقال ( معاذ ) يجيبه عنها بعد ما قتل ، ويخاطب أباه ويعرض له أنه قتل ظلماً  
لأنهم أقاموا قسامة ( شهادة ) كاذبة عليه حتى قتل ولم يكونوا عرفوا القاتل من

الثلاثة بعينه إلا أن غيظهم على جعفر حملهم على أن ادعوا القتل عليه : -  
أبا جعفر سلم بنجران واحتسب      أبا عارمٍ والمسلماتِ العواليا  
وقودٌ قلوفاً أتلِفُ السيفُ ربهَا      بغير دم في القومِ إلا تماريا  
إذا ذكرته مُعصرٌ حارثية      جرى دمع عينها على الخد صافيا  
فلا تحسبن الدينَ يا علبُ مُنْسا      ولا الثائرَ الحرانَ ينسى التقاضيا  
سنتقل منكم بالقتيل ثلاثة      ونقلِي وإن كانت دمانا غواليا  
تميتَ أن تلقى (معاذا) سفاهة      ستلقى معاذا والقضيب اليمانيا<sup>(١)</sup>

هذه مناقضة بين حي وميت ، افتخر جعفر بآثاره في هذا اليوم فرد عليه متوعداً أباه ، مسفها رأيه في تمنييه لقاءه .

ونذكر يوم الرَّحْرَحان لعاسر على تميم ولكنه متصل بساطان المناذرة والفساسنة واشترك في مناقضته شعراء فحطان<sup>(٢)</sup> وحدثت في سبيله حوادث شتى ، منها قتل زهير بن جذيمة العبسي ، وخالد بن جعفر بن كلاب ، والحارث بن ظالم المري ، وإنما نذكر هنا شواهد التقاض المتصلة بهذه الحوادث لأنه قتل الحارث ابن ظالم المري خالد بن جعفر الكلابي أبت غطفان أن تجيره ، فغضبت لذلك بنو عبس وبعث إليه قيس بن زهير بن جذيمة بهذه الأبيات :

جزاك اللهُ خيراً من خليل      شفى من ذى تُبُولته الخليل  
أزحتَ بها جوى ودخيل حزن      تمخَّحَ أعظمى زمناً طويلا  
كسوتَ الجعفرىَّ أبا جزيِّ      ولم تحفلْ به ، سيفاً صقيلا  
أبأتَ به زهيرَ بنى بغيض      وكنتَ لمثلها ولها حمولا  
كشفتَ له القناعَ وكنتَ يمن      يُجلى العارَ والأمرَ الجليلا

(١) راجع معاهد التنصيص ج ١ ص ٤٥ وأيام العرب في الجاهلية ص ٨٣ .

(٢) راجع ابن الأثير ج ١ ص ٤١١ — ٤٢٠ والقائض ج ١ ص ٢١٤ والأغانى ج ١١

ص ٧٥ — ١٣٠ وأيام العرب في الجاهلية ص ٣٤٢ و ٢٤٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٤٥ .

فأجابه الحارث بن ظالم :

أناى عن قَيْسِ بنى زهيرِ      مقالةٌ كاذبٍ ذَكَرَ التَّبُولَا  
فَلَوْ كُنْتُمْ كَمَا قُلْتُمْ لَكُنْتُمْ      لِقَاتِلِ تَارِكِ حِرْزاً أُصِيلا  
وَلَكِنْ قُلْتُمْ جَاوِزِ سِوَانَا      فَقَدْ جَلَلْتَنَا حَدَثًا جَلِيلا  
وَلَوْ كَانُوا هُمْ قَتَلُوا أَحَاكِم      لَمَا طَرَدُوا الَّذِى قَتَلَ الْقَتِيلا

فالحارث يكذب قيساً في ادعائه القفر بما فعل الحارث ، ويستدل لقوله بعدم حمايتهم إياه ، وبخوفهم من جرائمه ، وبتقصيرهم فيما يجب عليهم وأنه دون أعدائهم في ذلك ، فأفسد عليه معانيه ونفاها جميعاً .

وفي هذا الحادث يقول عبد الله بن جعدة الكلأبي يخاطب الحارث — وكان قتله جعفرأ غيلة وهو نائم :

يا حار لو نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ      لا طائِشاً رَعِشاً ولا مِعْزالا  
شَقَّتْ عَلَيْهِ الجَعْفَرِيَّةُ جِيَّتِهَا      جِزْعاً ، وما تَبْكِي هُنَاكَ ضلالا  
فانْعَمُوا أبا بَجر بِكُلِّ مُحْرَبٍ      حِرْانَ يُحْسَبُ في القِناةِ هلالا  
فَلْيُقْتَلَنَّ بِخَالِدِ سِروَاتِكُمْ      لِيَجْعَلَنَّ الظُّلْمَ تَمثالا  
فأجابه الحارث : —

نَاللهِ قَدْ نَبَّهْتَهُ فَوَجَدْتَهُ      رِخْوَ اليَدِينِ مُواكِلا عَسقالا  
فَعَلَوْتُهُ بالسِّيفِ أَضْرَبُ رَأْسَهُ      حَتَّى أَضَلَّ بِسَلْحِهِ السَّربالا  
فَكَذَّبَ ابنُ جَعْدَةَ ، وَهَجَا جَعْفراً بِالْجَبْنِ وَالْفِرْعِ .

وكان عمرو بن الإطنابة الخزرجى صديق خالد بن جعفر فلما بلغه مقتله قال : والله لو وجدته يقظان ما أقدم عليه ، ولو ددت أنى لقيته ، وبلغ الحارث قوله ، فقال : والله لا آتيتني في رحله ولا ألقاه إلا ومعه سلاحه فقال ابن الإطنابة قصيدته ،

وقيل إنه دعا بشرابه ووضع التاج على رأسه ودعا بقيائه فتغنين له : —  
عَلَانِي وَعَلَلًا صَاحِبِيًّا وَاسْتِقْيَانِي مِنَ الْمَرَوِّتِي رِيًّا  
إِنْ فِينَا الْقِيَانُ يَعْرِضُنْ بِالذُّ فَ لِفَتِيَانِنَا وَعَيْشًا رَحِيًّا  
إلى أن يقول : —

أبلغ الحارث بن ظالم الرعيد والناذر الذور عاليا  
إنما يقتل النيام ولا يقتل يقظان ذا سلاح كميًا  
معي شكتي معابل كالج ر وأعددت صارمًا مشرفيا  
ولو هبطت البلاد أنسيتك القتل كما ينسى النسيًا  
قبل الحارث شعره فذهب إليه يصاوله ولكن عمراً أفلت منه فانصرف  
الحارث إلى قومه وقال مجيباً له : —

اعزف لي بأدّة قينتيًا قبل أن يُبكرَ المنونُ عالياً  
إلى أن يقول : —

بلغتنا مقالة المرء عمرو فأفئنا وكان ذاك بدياً  
قد هممنا بقتله إذ برزنا ولقيناها ذا سلاح كميًا  
غير مانأهم تعلل بالحلیم مُعداً بكفه مشرفيا  
فمننا عليه بعد علو بوفاء وكنت قدما وقيًا  
ورجعنا بالصفح عنه وكان المن منا عليه بعد تليًا

وكان رد الحارث ، إن صح ما روى ، قولاً وعملاً فكذب عمراً في دعواه .  
هذا ما وقع لنا من شواهد النقائص في الأيام القحطانية ، ولعل ما ذهب منها  
أكثر مما بقي ، فإن في هذه الأيام إشارات إلى مواقف بين الشعراء تقتضى ذلك ،  
على أن ما ورد هنا — إن صح جميعه — كاف في الدلالة على قدم هذا الفن وأصلته  
في الحياة الجاهلية وإن لم يبلغ في القوة والدقة ما بلغ أيام الأمويين .

# الفصل الرابع

## النقائض والأيام العدنانية

— ١ —

الأيام العدنانية هي ما حدثت بين قبائل معد بن عدنان، وهي كثيرة ، منها ما كان بين قبائل ربيعة ، وما كان بين ربيعة وتميم ، ومنها أيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس وكنانة ، ومنها أيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم ، وذلك سوى مغاورات شتى بين القبائل من أى شعب ، وقد كثر الشعر جداً في سبيل هذه الأيام صحيحاً وموضوعاً حتى ليستحق دراسة خاصة مستفيضة تتناوله وتتناول معه قصص هذه الحوادث ، ولكننا هنا سنقف عند الإشارة إلى الأيام التي تضمنت المناقضة الشعرية .

من أيام ربيعة فيما بينها حرب البسوس بين بكر وتغلب ابني وائل وهي مشهورة معروفة الوقائع<sup>(١)</sup> وقد قيل في هذه الوقائع شعر كثير منه مادار بين جساس بن مرة وأبيه مما يشبه المناقضة ، فلما قتل جساس كليلاً قال أبوه : وددت أنك وإخوتك كنتم متمُّ قبل هذا ، ما بى إلا أن تتشاءم بى أبناء وائل ، فأقبل قوم مرة عليه وقالوا : لا تُقُل هذا ولا تفعل فيخذلوه وإياك ، فأمسك مرة ، فقال جساس : —

---

(١) راجع النقائض ص ٧٧٣ وابن الأثير ج ١ ص ٣٨٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٦٦ وأيام العرب في الجاهلية ١٤٢ .

تأهت مثل أهبة ذى كفاح  
وإني قد جنيتُ عليك حرباً  
مذكرةً متى ما يضح منها  
تعدت تنقلب ظلماً علينا  
فلما أن رأينا واستبنا  
صرفتُ إليه نحساً يوم سوء  
فلما سمع أبوه قال يحبيه : —

فإن تك قد جنيتَ على حرباً  
جمعتَ بها يدك على كليب  
ولكني إلى العلات أجرى  
وإني حين تشتجر العوالى  
شديد البأس ليس بذى عياء  
سألستُ ثوبها وأذبُ عنها  
فما يبقى لعزته ذليل  
فإني قد طربتُ وهاج شوقى  
وأجلُّ من حياة الذل موتٌ  
تغصُّ الشيخ بالماء القراح  
فلا وكلُّ ولا رث السلاح  
إلى الموت المحيط مع الصباح<sup>(١)</sup>  
أعيد الرمح فى إثر الجراح  
ولكني أبوء إلى الفلاح  
بأطراف العوالى والصفاح<sup>(٢)</sup>  
فيمنعه من القدر المتاح  
طراد الخيل عارضة الرماح  
وبعض العار لا يمحوه ماح

وقد وقع فى يدي كتاب مطبوع فى العراق بعنوان « تاريخ الحروب العربية أو حرب البسوس » تأليف محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ ، ورد فيه شعر كثير فى شكل مناقضات متصلة بهذه الأيام منسوبة إلى مهمل وجساس والحارث ابن عباد البكرى وغيرهم ، وهذه الكثرة تدل على نشاط القصاص ومقدار ما حلوا

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى . (٢) الصفاح السيوف الغراض .

وأضافوا ومن بينها هاتان مقطوعتان لئذ كورتان هنا والواردتان في المراجع الأخرى، على أن دراسة هذه الأشعار نافعة لهم القصص الإسلامي وتبين الصورة التي تصورها هؤلاء القصاص لحرب البسوس . وقد قلنا إن هذا الشاهد يشبه النقائض وليس منها لوحدة الموضوع والبحر والقافية ، ولعدم تقابل المعاني ، فإن مرة والذ جساس جرى مع ابنه في نفس المضمار وسأيره أو سائر عشيرته متأهباً منكرأ الذل الذي يفرضه كليب على بكر .

وهناك يوم (جدود) لبني منقر من تميم على بكر من ربيعة<sup>(١)</sup> غزا فيه الخوفران — وهو الحارث بن شريك — من بكر، بنى يربوع على جدود، ومنعهم يربوع الماء، فصالحهم البكريون على أن يعطوا بني يربوع بعض غنائمهم التي كانت معهم منى بنى سعد ابن زيد مناة، وعلى أن يخلى اليربوعيون بينهم وبين الماء، ولما علم بذلك بنو سعد، قال قيس بن عاصم المنقري في ذلك —

جزى الله يربوعاً بأسوأ سعيها	إذا ذكرت في الغائبات أمورها
ويوم (جدود) قد فضحت أباكم	وسائتم والحيل تدمي نحورها
ستخطم سعد والرّباب أنوفكم	كما غاظ في أنف للقضيب جريها <sup>(٢)</sup>
أفخرأ على المولى إذا ما بطنتم	ولوماً إذا ما الحربُ شب سعيها
أتانى وعيد الخوفران ودونه	من الأرض صحراوات فلدج وقورها
أقم بسبيل الحى إن كنت صادقاً	إذا حشدت سعد وجاش نصيرها
عصمنا تميماً في الحروب فأصبحت	يلوذ بنا ذو وفرها وقييرها

فأجابه مالك، ولعله مالك بن مسروق الربيعي، فقال: —

سأسال من لاقى فوارس متقر  
رقاب إماء كيف كان نكيرها

(١) شرح المفضليات ص ٧٤٠ ونقائض جرير والفرزدق ص ١٥٤ و ٣٢٦ والعقد الفريد ج ٣ ص ٥٢ وابن الأنبر ص ١٠ ص ٣٥٦ .  
(٢) غاظ : دخل . والقضيب الذاقة التي لم تروض . والجرير الحبل

وأما يوم (مُبايض) فكان لبكر على تميم ، وذلك أن طريف بن مالك العنبري من تميم كان لا يتنفع في عكاظ بخلاف الفرسان الذين كانوا يتنفعون كي لا يعرفوا ، فوافي عكاظ وكان قد قتل شراحيل الشيباني ، فجاء حصيصة بن شراحيل يسأل عن طريف حتى دُل عليه فأخذ يتأمله ، ففطن لذلك طريف وسأله عن شأنه ، فقال : أريد أن أعرفك لعلى أن ألقاك في جيش فأقتلك ، فقال طريف : —

أوكما وردت عكاظ قبيلةً      بعثوا إلى عريفهم يتوسمُ  
فتوسموني إنني أنا ذلكم      شاكي سلاحي في الحوادثُ سَعَمُ  
حولي فوارسُ من أسيد شجعةً      وإذا نزلتُ فحولَ بيتي خَضَمُ  
تحتي الأغرُّ وفوقَ جلدِي نثرةٌ      زَعْفُ تردِّ السيف وهو مُثَلَمُ  
وحدثتُ أمورَ كان منها أن التقى بنو شيبان و تميم عند مبايض وهزمت تميم  
فقال حصيصة وقد قتل طريفًا : —

ولقد دعوتَ طريفُ دعوةَ جاهلٍ      غرًّا وأنت بمنظر لا تعلمُ  
وأتيتَ حيًّا في الحروبِ محلهم      والجيشِ باسمِ أبيهمِ يُستقدمُ  
فوجدتَ قومًا يمنعون ذِمَّارهم      بسلاً ، إذا هاب الفوارسُ أقدموا  
وإذا دعوا بنى ربيعة أقدموا      بكتيبة مثل النجوم تَلَمُّ  
حشدوا عليك وعجلوا بِقِراهمُ      وحموا ذِمَّارِ أبيهمِ أن يُشتموا  
سأوكِ دِرْعَكَ والأغرَ كليهما      وبنو أسيدِ أسموكِ وخَضَمِ (١)

فرد حصيصة على طريف ما ادعاه من شجاعته وشجاعة قومه ووضع قومه

(١) راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٦٥ وابن الأثير ج ١ ص ٤٥٠ معاهد التنصيص ج ١ ص ٧١ .

بإزاء قومه ، حتى إذا وصل إلى آخر أبياته وضع بيته الأخير بإزاء بيتي طريف  
الأخيرين ، فسلبه درعه وفرسه ، وسخر بأسيد وخضم اللتين أسلمتاه حتى قتل ،  
فكذبه فيما ادعاه .

وكان يوم الشَّيْطَانِ لبكر على تميم<sup>(١)</sup> وكان بعد الإسلام ولم يكن أسلم  
ذووه ، والشيطان واديان لبكر أجدا فتركتهما إلى السواد وأقامت فيه ، ثم  
أخصب الشيطان فنزلتاهما تميم ، فأغارت بكر على تميم وهزمتهم فقال رُشيد بن  
رُمَيْض العنزي العنبري من ربيعة بن نزار : —

وما كان بين الشَّيْطَانِ وَلَمَلَعِ	لِنِسْوَتِنَا إِلَّا مَنَاقِلُ أَرْبَعِ <sup>(٢)</sup>
فَجُنْنَا بِجَمْعٍ لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ	يَكَادُ لَهُ ظَهْرُ الْوَرِيعةِ يَظْلَعِ <sup>(٣)</sup>
بَارِعَنَ دَهْمٍ تَنْشُدُ الْبُلُقُ وَسَطُهُ	لَهُ عَارِضٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ
إِذَا حَانَ مِنْهُ مَنْزِلُ الْقَوْمِ أَوْقَدَتْ	لِأَخْرَاهِ أَوْلَادُ سَنَا وَتَيْفَعُوا <sup>(٤)</sup>
صَبَحْنَا بِهِ سَعْدًا وَعَمْرًا وَمَالِكَا	فَظَلَّ لَمْ يَوْمٌ سِ الشَّرِّ أَشْنَعُ
وَذِي حَسْبٍ مِنْ آلِ ضَبَّةَ غَادَرُوا	يُجْرُ كَمَا جُرَّ الْفَصِيلُ الْمَقْرَعُ <sup>(٥)</sup>
تَقْصَعُ يَرْبُوعٌ بِسُرَّةِ أَرْضِنَا	وَلَيْسَ لِيَرْبُوعٍ بِهَا مُتَقْصَعُ <sup>(٦)</sup>
وَقَلْتُ لِيَرْبُوعٍ أَسِرُّ نَصِيحَةً	وَلَوْ أَنَّ يَرْبُوعًا إِذَا امْتَارَ يَرْفَعُ
يَخْلُوا لَنَا صَحْنَ الْعِرَاقِ فَإِنَّهُ	حَمَى مِنْهُمْ لَا يُسْتَطَاعُ مُنْتَعُ

فأجابه مُحْرِزُ بْنُ الْمَكْعَبِ الضَّبِّيِّ وَكَانَتْ ضَبَّةٌ قَدْ اسْتَحَرَّتْ بِهَا الْقَتْلَ مَعَ تَمِيمٍ : —

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٢٠ وابن الأثير ج ١ ص ٤٩٠ والعقد الفريد ج ٣ ص ٦٤ .

(٢) لعل موضع أو جبل أو ماء . (٣) الوريعة اسم فرس .

(٤) تيفعوا : رفعوا نارهم على يفاع من الأرض ترى .

(٥) المقرع الذي به القرع وهو جدري فيجر في السباح ليتفقا ما به .

(٦) متقصع : مقام .

فخرتم بيوم الشَّيْطَانِ وَغَيْرُكُمْ      يَضُرُّ يَوْمَ الشَّيْطَانِ وَيَنْفَعُ  
 وَجِئْتُمْ بِهَا مَذْمُومَةً عَنَزِيَّةً      تَكَادُ مِنَ النَّوْمِ الْمَبِينِ تَنْطَلَعُ  
 فَإِنْ يَكُ أَقْوَامٌ أَصَابُوا بَغْرَةَ      فَأَتَمُّ مِنَ الْغَارَاتِ أُخْزَى وَأَوْجَعُ  
 فَرِيقَانِ : مِنْهُنَّ مَنْ أَتَى الْبَحْرَ دُونَهُ      وَمُودٍ كَمَا أُوْدَتْ ثَمُودٌ وَتَبَعُ  
 وَمَا مِنْكُمْ أَفْنَاءُ بَكْرٍ بِنِ وَائِلِ      لَعَارْتَنَا إِلَّا ذَلُولٌ مُوَقَّعٌ (١)

فخر شاعر بكر بقوة جيوشهم ، وبآثارهم السيئة في تميم ومن معهم ، وسمت  
 بما نزل بهم إذ لم ينتصحو ، فرد عليه شاعر تميم بنفى هذا الفخر ، وازدراء خيلهم ،  
 وأخذهم تميا غدرًا ، وبهزيمتهم كذلك .

وأما ما كان من النقائص في يوم بطن عاقل فقد مر ذكره في يوم الرحرحان  
 إذ كانا متصلين حوادث وشعراً ، فلا نعيدها هنا .

## - ٢ -

فاذا انتقلنا إلى سائر أيام قيس صادفتنا أيام داحس والغبراء بين عبس  
 وذبيان (١) وهي كثيرة الحوادث والشعر والقصاص قيلت في أمثائها معلقة عنترة  
 العبسي ، وفي أعقابها معلقة زهير بن أبي سلمى مدحاً للحارث بن عوف وهرم بن  
 بن سنان المرين لهوضهما بالصلح بين المتحاربين . وقد جاء في شرح ديوان  
 الحماسة للتبريزي أن قيس بن زهير العبسي حين قتل ندبة بن حذيفة الفزاري ،  
 أرسل إلى أخيه مالك بن زهير - وكان متزوجاً في فزارة ونازل فيهم - أن يلحق  
 بهم خوف القتل وبعث إليه بهذين البيتين : -

(١) بعير موقع الظهر ، به آثار الدبر .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٢٥ والعقد الفريد ج ٣ ص ٤٩ والنقائص ص ٨٣ والأغانى ج ٨

ص ٢٤٠ ، و ج ١٦ ص ٢٦ بلاق .

أمالكُ لا تأمنُ فزارَةَ وأخَشَها      فإنك إن تأمنَ فزارَةَ هالكُ  
أمالكُ إن تحسبَ مقامكَ فيهمُ      صواباً ، فقد أخطأتَ في الرأي مالكُ  
فرد عليه مالك بهذين البيتين : —

يا قيسُ حسبك ما أتيتَ فخلني      وبنى فزارَةَ ، إنني مُماسِكُ  
أترى حذيفةَ آخذى بجريرةٍ      لم تجنِّها كفى ، وأنتَ الفاتِكُ ؟ !  
فخطأه في رأيه ، وخالفه في مذهبه ، وأنكر عليه ما اقترف من قتل ندبة ،  
ورأى في صاحب النار إنصافاً وعدالة .

وكان يوم ( الرقم ) لغطفان على عامر<sup>(١)</sup> وذلك أن بني عامر غزت غطفان  
بالرقم — جبال دون مكة بديار غطفان — وكان عامر بن الطفيل على عامر  
شاباً ، فهزمتهم غطفان ، فقال عامر : —

ولتسألنَّ ( أسماء ) وهى حَفِيَّةٌ      نُصحاءُها أطرِدْتُ أم لم أطرِدِ  
قالوا لها : فلقد طردنا خياله      قلدح الكلابِ وكنتُ غيرَ مطرَدٍ<sup>(٢)</sup>

إلى آخر ما قال متوعداً متحمساً ، فبلغ شعره غطفان فهجاه جماعة منهم ،  
وكان النابتة الندياني غائباً عند ملوك غسان ، ولما عاد سأل قومه عما هجوا به  
عامر بن الطفيل ، فأنشدوه ما قالوا فيه ، وما قال فيهم ، فقال : لقد أفضتم ، وليس  
مثل عامر يهجي بمثل هذا ، ثم قال أبياته البائية الآتية يخطيء عامراً في ذكره  
امرأة من عقائلهم ( وهى أسماء الفزارية المذكورة في مطلع أبياته السابقة ) .

ولكن ورد في ديوان عامر بن الطفيل<sup>(٣)</sup> أن أبيات النابتة كانت رداً على  
قول عامر للنابتة : —

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٤٨٢ والقعد الفريد ج ٣ ص ٥١ وأيام العرب في الجاهلية ص ٢٧٨ .  
(٢) الفلج صفرة تعلو الأسنان شبه بها فزارَةَ . (٣) ص ١٢٩ طبع أوربة .

ألا من مبلغ عنى زياداً  
غداة تثوب خيل بني كلاب  
فإن لنا حكومة كل يوم  
وإني سوف أحكم غير عادٍ  
حكومة حازم لا عيبَ فيها  
فإن مظية الحليم التاني  
وليس الجهل عن سنٍّ ولكن  
فإلى بني بغيضٍ قد أتاهم  
ولا ردُّوا محورةً ذاك حتى  
فإن مقاتلي ما قد علمتم  
إذا يمتن خيلاً مُسرعاتٍ  
وإن مرّت على قوم أعادٍ

وهذا ردّ النابغة في رواية ديوان عامر :

ألا أبلغ عويمر عن زيادٍ  
فإنك سوف تحلم أو تناهي  
فكن كأبيك أو كأبي براء  
ولا تذهب بحلمك هافيات  
فإن يك ربُّ أذوادٍ محسمى

فإن مظنة الجهل الشباب  
إذا ما شبت أو شاب الغراب  
توافقك الحكومة والصواب  
من الخيلاء ليس هنّ باب<sup>(١)</sup>  
أصابوا في لقائك ما أصابوا<sup>(٥)</sup>

(١) كظهم : غيهم وبالأهم غيظا .

(٢) شبه الشعر بالسهم النافذة التي لا ترد لسرورته . (٣) المحورة المحاورة والجواب

(٤) هافيات ما يستخفك فتطيش لها . باب : مخاض ونجاة .

(٥) حسمى : يوم ابى بغيض على عامر فيه حنظلة بن قتل الطقيل أخو عامر .

فما إن كان من نسب بعيدٍ ولكن أدركوك وهم غضاب  
فوارسٍ من (منولة) غير ميلٍ ومرةً فوق جمعهم العقاب<sup>(١)</sup>  
ويمكن الجمع بين الروایتين بأن عامراً قال أبياته رداً على النابغة ، ولعل النص  
نفسه يساعد على ذلك ، فقد رمى النابغة عامراً بالجهل والطيش ، وأقذع في هجائه  
دون سباب إذ فضل عليه بعض قومه فأحققه ، وعلى كل فإن أركان المناقضة  
متوافرة بين الشاعرین من كل وجه ، وبخاصة المعاني ، فقد التحمت حول الجهل  
والسفه ، ثم الأيام والظفر ، ثم الحماسة وأربابها ، كل ادعى لنفسه الفضائل والمآثر  
المتصلة بها وألصق بخصمه أضدادها دون إسفاف أو سباب .

ومن أيام قيس وكنانة يوم (برزة) لبني فراس من كنانة على بني سليم من  
قيس عيلان<sup>(٢)</sup> وكان رئيس بني فراس عبد الله بن جدل ، وعلى بني سليم مالك  
ابن خالد ، وقامت الحرب أول الأمر على المبارزة إذ قتل عبد الله مالك بن صخر  
وأخاه كرزاً بعدما استصغرا أخاهما هنداً ، وقال عبد الله :

تجنبتُ هنداً ، رغبةً عن قتالهِ	إلى مالكٍ ، أعشو إلى ضوء مالكٍ
فأنقذته بالرمح حين طعنتهُ	معاقة ليست بطعنة باتكٍ
وأثني لكرزٍ في الغبار بطعنةٍ	علت جلدَهُ منها بأحمر عاتكٍ
قتلنا سليماً عثها وسمينها	فصبراً سليماً ، قد صبرنا لذلكٍ
فإن تك نسوانى بكين فقد بكت	كما قد بكت أم لكرزٍ ومالكٍ

وقال غير ذلك في معانيه ، ثم إن بني الشريد ثأروا لأنفسهم يوم (القيفاء)  
فقتلوا جماعة من بني كنانة وسبوا ربيعة بن مسكدم ، فقال عباس بن مرداس في  
ذلك يرد على ابن جدل كلمته التي قالها يوم (برزة) :

(١) منولة أم مازن وشمخ ابني فزارة ، ومرة بن عوف بن سعد ، والأميل الذي لا ترس  
معه ، والعقاب الزاية .  
(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٦ ومعجم البلدان مادة برز .

ألا أبلغن عنى ابن جدلٍ ورهطه      فكيف طلبناكم بـكرزٍ ومالكِ  
غداة فجئناكم بحصنٍ وبابنه      وبابنِ المعلى عاصمٍ والمعاركِ  
ثمانية منهم ثرناهم به      جميعاً وما كانوا بواءً بمالكِ<sup>(١)</sup>  
نُديقكم - والموت بيني سرادقاً      عليكم - سباحدُ السيوفِ البواتكِ  
تلوحُ بأيدينا كما لاح بارقُ      تلاًلاً في داجٍ من الليلِ حالِكِ  
صَبَحْنَاكُمْ عُوْجَ العنَاجِيجِ بالضحى      تمر بنا مرّةً الرياحِ السواهِكِ<sup>(٢)</sup>  
إذا خرجتُ من هبوةٍ بعد هبوةٍ      سمّتُ نحو ملتفتٍ من الموتِ شائكِ<sup>(٣)</sup>

قامت المنافضة على الموازنة ووضع آثار بإزاء أخرى إذ قامت على ذكر الثأر  
والانتقام ، وقال هند بن خالد بن صخر بن عمرو بن الشريد لما ثأر لأخويه :

قتلتُ بمالكِ عمراً وحِصناً      وخلّيتُ القتامَ على الحدودِ  
وكُرزاً قد أبأتُ به شريحاً      على إثرِ الفوارسِ بالكديدِ  
جزيناهم بما اتهموا وزدنا      عليه ما وجدنا من مزيدِ  
جلبنا من جنوبِ العودِ جُرداً      كطيرِ الماءِ غلّسٍ للورودِ

فلما افتخر هند بيوم الكديد<sup>(٤)</sup> ولم يشهده أحد من بني الشريد غضب  
من ذلك نبيشة بن حبيب فأنشأ يقول : -

تبخلُ صعبنا في كل يوم      كخضوبِ البنانِ ولا يصيدُ  
وتأكلُ ما يعاف الكلب منه      وتزعمُ أن والدك الشريدِ  
أبي لى أن أقرّ الضيمَ قيسُ      وصاحبُه المزورُ به الكديدُ

(١) البواء الكفء

(٢) العنَاجِيجُ جمع عنجوج وهو الرائع من الخيل ، والعوج الكرام ، السواهِك من  
الرياح العواصف . (٣) الهبوة الفجرة .

(٤) لسليم على كثافة ، راجع أيام العرب في الجاهلية ص ٣١٢ .

فكان نقض نبيشة قائماً على تكذيب هند في المشاركة في يوم الكديد ،  
وعلى إباء الضيم ، ورمى صاحبه بالهوان .

وفي يوم الفجار الأول بين قيس وكنانة كان بدر بن معشر الغفاري رجلاً  
منيعاً مستطيلاً بمنعته على من ورد عكاظ ، وفي أحد المواسم بعكاظ اتخذ مجلساً بها  
وقعد فيه ، وجعل يتناول على الناس ويقول : —

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا في عينه لا يظرف  
ومن يكونوا قومه يُغظرف كأنهم لجة بحر مسدِف<sup>(١)</sup>  
ثم مد رجله وقال : أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف ،  
فوثب رجل من بني نصر بن معاوية فضربه بالسيف على ركبته فأنذرها ، ثم  
قال : خذها إليك أيها الخندف — وهو ماسك سيفه — ثم قام رجل من  
هوازن فقال : —

أنا ابن همدان ذو التغظرف بحر مجبور زاخر لم يُنزف  
نحن ضربنا رُكبة الخندف إذ مدّها في أشهر المعرف<sup>(٢)</sup>  
ثم تلاحي الحيان حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ثم رأوا أن طلب يسير  
فتراجعوا . ويوم جبلة من أيام قيس وتميم ، لعامر وحلفائهم من عبس على تميم  
وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرها<sup>(٣)</sup> وهو من أعظم أيام العرب ومثله الكلاب  
الثاني وذوقار ، وفي هذا اليوم يقول لقيط بن زرارة : —

يا قوم قد أحرقتموني باللوم ولم أقاتل عامراً قبل اليوم

(١) مسدِف : مظلم . خندف زوج إلياس بن مضر وإليها نسب أولاد إلياس جميعاً .  
الغضريف السيد الشريف . (٢) المعرف : الموقف بعرفات — راجع ابن الأثير ج ١ ص  
٤٣٩ والعقد الفريد ج ٣ ص ٧٧ . (٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٥٤ والعقد الفريد ج ٣  
ص ٤٦ وابن الأثير ج ١ ص ٤٢٥ ، والأغاني ج ١١ ص ١٣١ دار الكتب .

فاليوم إذ قاتلتهم فلا نوم      تقدموا وقدموني للقوم  
شتان هذا والعناق والنوم      والمضجع البارد في ظل الدوم  
فقال شأس بن بلي يحييه -

لكنني قاتلتها قبل اليوم      إذ كنت لأتعصى أموري في القوم  
وهذه الإجابة لم تكن تحدياً ولا معاداة ولكنها متابعة وتحميس إذ كان شأس  
الأسدي في جانب لفيط بن زُرارة التميمي ، وشعر هذا اليوم كثير في الجاهلية  
والإسلام ، تجده في الأغاني والنقائض خاصة .  
وقد ذكرنا قبلاً مناقضة يوم ( المرثوت ) بين يزيد بن عمرو بن الصعق والعوراء  
الرياحية فلا نعيدها هنا .

والواقع أن هناك شعراً جيداً قيل في أيام العرب ومغاوراتها حماسة وفخراً  
وهجاء ورتاء ، كنت شديد الحرص على عرضه لولا خروجه من المناقضة أو ضياع  
نقائضه فيما يبدو لي . وكم أود لو فرغت أنا أو فرغ غيري لدرس هذه الأيام عامة  
دراسة مستقلة تتناول حوادثها ، وقصصها ، وشعرها ولدالاتها الاجتماعية والسياسية ،  
إذاً لنظننا من ذلك بخير كثير للدراسات التاريخية والأدبية .

# الفصل الخامس

## النقائض والحياة الاجتماعية

وهناك نقائض قيلت في سبيل أمور أخرى اجتماعية لا تتصل بالأيام أو لا تتصل بها اتصالاً مباشراً وإن كانت منها بسبب . ووربما قيلت في سبيل حوادث جزئية يسيرة لا تبلغ مبلغ الأيام في فنونها أو سعتها . وقد قلنا من قبل إن منشأها خلاف على طرائق المعاملة الاجتماعية ومقدار ملاءمتها للأوضاع المقررة سواء أكان ذلك على أساس الحق الواضح الصريح أم على وجه النظر واختلافها بين المتناقضين ، وقد ألمنا في الفصل الثاني بشيء من أصول الحياة الاجتماعية في الجاهلية وما علينا هنا إلا أن تعرض بعض الأمثلة لهذا الجانب من جوانب النقائض .

١ — كان بين امرئ القيس وبين سُبَيْع بن عوف أحد بني طُهَيْيَّة وشيخة

قُرْبى ، فنزل عليه سُبَيْع وسأله فلم يعطه شيئاً فذمه سُبَيْع بقوله :

إِذَا مَا نَزَلْنَا دَارَ آلِ مُغَرِّزٍ      يَلِيلٍ فَلَا يَخْلِفُ عَلَيْهَا الْغَمَامُ<sup>(١)</sup>

مُغَرِّزُ أَبْكَارِ اللَّقَاحِ إِذَا شَتَا      وَضَيْفَكَ جَارِ الْبَيْتِ لِأَيَّامِ<sup>(٢)</sup>

فقال امرؤ القيس يجيبه من قصيدة : -

لِمَنِ الدِّيَارُ غَشِيَتْهَا بِسُحَامٍ      فَعَمَائِتَيْنِ فَهَضْبِ ذِي إِقْدَامِ

فَصَفَا الْأَطْيِيطُ فَصَاحَتَيْنِ ففَاضِرٍ      تَمَشَّى النَّعَاجُ مَعَ الْآرَامِ<sup>(٣)</sup>

دَارِ لِهِنْدٍ وَالرِّيَابِ وَفَرْتَنَا      وَلَمِيسَ قَبْلَ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ

(١) يدعو عليهم بعدم السقيا ليخلهم . (٢) مغرز : يحلب الناقة مرة ويتركها أخرى .  
(٣) النعاج : بقر الوحش ، والآرام : الغزلان .  
لأيا ينام : أى لا يكاد ينام من الجوع .

عُوجَا عَلَى الطَّالِ الْمَحِيلِ لَعَلَّنَا  
 نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنَ حِذَامِ (١)  
 أَبْلَغُ سُبَيْعًا إِنْ عَرَضْتَ رِسَالَةً  
 أَنَّى كَهْمَكَ إِنْ عَشَوْتَ أَحَامِي (٢)  
 فَاقْصِرْ إِلَيْكَ مِنَ الْوَعِيدِ فَإِنِّي  
 مِمَّا أَلِيقُ لَا أَشَدَّ حِرَامِي (٣)  
 وَأَنَا الَّذِي عَرَفْتُ مَعْدَةَ فَضْلَهُ  
 وَنَشَدْتُ عَنْ حُجْرِ بْنِ أُمِّ قَطَايِمِ (٤)  
 خَالِي ابْنُ كَبِشَةَ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهُ  
 وَأَبُو يَزِيدَ وَرَهْطُهُ أَعْمَامِي (٥)  
 وَإِذَا أُذِيتُ بِيَلْدَةٍ وَدَعْتُهَا  
 وَلَا أَقِيمُ بغيرِ دَارٍ مُقَامِ

وظاهر أن أبيات سُبَيْعِ مَبْتُورَةٌ ضَاعَ أَكْثَرُهَا بِدَلِيلِ مَا فِي رَدِّ امْرِئِ الْقَيْسِ مِنْ حِمَاسَةٍ ، وَإِشَارَةٍ إِلَى وَعِيدِ سُبَيْعِ لَهُ وَفَخْرٍ بِالْأَهْلِ وَإِبَاءٍ لِلضَّمِيرِ ، غَايَةٌ مَا فِي الْأَمْرِ أَنْ ( آل مُغَرَّرٌ ) : هَلْ هُمْ رَهْطُ امْرِئِ الْقَيْسِ أَوْ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهِ أَوْ أَنْ ذَلِكَ نَبْزٌ لِأَسْرَتِهِ ؟

٢ — كَانَ أُمِيَّةُ بْنُ خَلْفِ الْخَزَاعِيِّ قَدْ هَجَا حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ بِقَوْلِهِ : —

أَلَا مَنْ مُبْلَغُ حَسَانَ عَنِّي مُغْلَغَةً تَدِبُّ إِلَى عُكَاظِ (٦)  
 أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قِينَا لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسَلَا فِي الْحِفَاظِ (٧)  
 يَمَانِيًا يَظَلُّ يَشُدُّ كِبْرًا وَيَنْفَخُ دَائِبًا لَهَبَ الشَّوَاظِ (٨)  
 فَأَجَابَهُ حَسَانٌ فَقَالَ : —

أَتَانِي عَنْ أُمِيَّةَ زُورُ قَوْلِ وَمَا هُوَ بِالْمَغِيبِ بَدَى حِفَاظِ (٩)

- 
- (١) المحيل الذي أنت عليه الأحوال فغيرته وابن حذام شاعر بكى الديار قبل امرئ القيس .  
 (٢) كهك كجالك ، عشوت . نظر نظراً ضعيفاً . أحامي . أدافع .  
 (٣) لأشد حزامي . است في حاجة إلى الاستعداد . المنازلة . منلك . (٤) حجر . أبو امرئ القيس .  
 (٥) ابن كبشة . لعاه مهليل ، راجع ديوان امرئ القيس ص ١٧٥ للاستدوين .  
 (٦) مغلغة . رسالة ، وعكاظ سوق العرب المعروفة .  
 (٧) القين الحداد . القسن الرذل . الحفاظ المحافظة على العهد عن المخارم .  
 (٨) كبير الحداد ما ينفخ به . (٩) يروي ذور أي طرف من الكلام

سأنشر إن بقيت لكم كمالاً      يُنشرُ في الجامع من عكاظ  
قوافي كالسلايم إذا استمرت      من الصمِّ المعجرفة الغلاظ<sup>(١)</sup>  
تزورُّك إن شتوت بكل أرض      وترضح في محلك بالمقاز<sup>(٢)</sup>  
بنيتُ عليك أبيتاً صلاباً      كأمر الوسقِ قفصَ الشظاظ<sup>(٣)</sup>  
مجملة تغمته شـ ناراً      مضرمة تَجج كالشواظ<sup>(٤)</sup>  
كهمزة ضيغم يحى عرينا      شديد مغارز الأضلاع خاظي<sup>(٥)</sup>  
تغضُّ الطرف أن ألقاك دوني      وترمى حين أدبر باللحاظ<sup>(٦)</sup>

فأمية رمى حسان بأن أباه كان قيناً ، وهي من الصفات التي رمى بها جرير  
الفرزدق في الإسلام ، فكذبه حسان ، وهدده بالتشهير به في عكاظ مجتمع  
العرب العظيم ، وأن هذا التشهير يكون بشعر أليم ، سائر ، يكسبه العار ، ويؤذيه  
أشد إيذاء ، ثم يرميه بالخوف والمهابة ، فكان أشد في وعيده .

٣ — وكان بين بني النجار وبين خَظمة ( بنى عبد الله بن مالك بن أوس )  
منازعة في حليف لبني النجار من بغيض فالتقوا يوماً بالدرِّك<sup>(٧)</sup> وجمع بعضهم  
لبعض حتى أصابتهم جراح ولم يكن بينهم قتلى ومنعت بنو النجار حليفها ، فقال  
حسان في ذلك : —

فقد أُمِّي لِعَوفِ كَلِمَا      وبنى الأبيض في يوم الدرِّكِ  
منعوا ضيبي بضربِ صائبِ      تحت أطراف السرايل هتِك<sup>(٨)</sup>

(١) السلام الحجارة ، المعجرفة الغليظة . (٢) ترضح : تكسر . المقاز مكان الإقامة في الصيف .  
(٣) يقول أبيتاً محكمة كالعدل المشدود بالشظاظين وهما عودان في عروتي العكم .  
(٤) جملة معمة . (٥) خاظ مكثر اللحم .  
(٦) ديوان حسان ص ٢٤١ للبرقوقي . (٧) موضع قرب المدينة .  
(٨) الضيم الذل ، والسرايل الدروع ، وهتك شق .

وبنانٍ نادرٍ أطرافها وعراقيبَ نفسًا كالفلك<sup>(١)</sup>  
فأجابه يزيد بن طعمة الخطمي : —  
إذ تنادوا بالوعوف إركبوا ليس سيين قوي ور كك<sup>(٢)</sup>  
فاجتمعنا ففضضنا جمعهم بالصعيداء وفي يوم الدرك  
قدفوا سيدهم في ورطة قدفك المقلّة وسط المعترك<sup>(٣)</sup>  
أبلغنا عوفًا بأنا معقل تمنع الضيم وفرع مشتبك<sup>(٤)</sup>  
وإذا ماملك حاربنا ضمن الخوف لنا قلب الملك<sup>(٥)</sup>

يكذب حسان فيما ادعاه من غلبة ، ويرميه بالتورط فيما لا يقدر عليه رهطه ،  
ويفخر عليه بالتثامهم ، وإخافتهم الملوك .

٤ — وقال أبو سفيان بن الحارث لحسان بن ثابت : —

ألا من مبلغ حسان عني خلفت أبي ولم تخدأ أبابا  
فقال حسان يجيبه : —

لأنّ أبي خلافته شديد وأن أباك مثلك ما عداك<sup>(٦)</sup>  
فهذا شاهد للتوجيه من طرق النقائص .

٥ — تزوج حسان امرأة من أسلم فولدت له غلاما فقال يهجوها : —

غلام أتاه اللؤم من شطر خاله له جانب ووافٍ وآخر أ كشم<sup>(٧)</sup>  
فقال تجيبه : —

غلام أتاه اللؤم من نحو عمّه ومن خير أعراق ابن حسان أسلم<sup>(٨)</sup>

(١) نادر ساقط ، العرقوب أسفل الساق ، نفسا تقطع ، والفلكة الهنة الناتجة عن أصل النسان .

(٢) ركك : ضعاف (٣) المقلّة حصة توزع في الإناء لقسمة الماء بقدر ما يغمرها ،

والمعترك المزدهم . (٤) مشتبك : متقارب . (٥) خافنا الملك فلا يحاربنا .

(٦) ديوان حسان ص ٢٩٨ (٧) أ كشم : ناقص (٨) نفس المصدر ص ٢٩٩

فكان تقضها تكذيباً ، وقلبا ، هجته بهجائه قومها ومدحت قومها .

٦ — رصد جماعة من الأزدي تأبط شراً ، وأغروا به رجلا منهم يقال له حاجز

فلم يلحقه فقال تأبط شراً في ذلك : —

وقعت حِصْنِي حَاجِزَ وَصَحَابَهُ      وقد نَبَذُوا خُلُقَالَهُمْ وَتَشَنَعُوا<sup>(١)</sup>  
أُخِّنْ وَإِنْ صَادَفْتُ وَعَثًّا وَإِنْ جَرَى      بِي السَّهْلُ أَوْ مَثْنٌ مِنَ الْأَرْضِ مَهِيْعٌ<sup>(٢)</sup>  
أَجَارِي ظِلَالَ الطَّيْرِ لَوْفَاتٍ وَاحِدٍ      ولو صَدَقُوا قَالُوا لَهُ : هُوَ أَسْرَعُ  
فَلَوْ كَانَ مِنْ فِتْيَانِ قَيْسٍ وَخِنْدِفٍ      أَطَافَ بِهِ الْقُنَاصُ مِنْ حَيْثُ أَفْرَعُوا  
وَجَاءَ بِالْأَدَا نِصْفَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ      لَأَبِ إِلَيْهِمْ وَهُوَ أَشْوَشٌ أَرْوَعٌ<sup>(٣)</sup>  
فَلَوْ كَانَ مِنْكُمْ وَاحِدًا لَكَفَيْتَهُ      وما ارْتَجَعُوا لَوْ كَانَ فِي مَطْمَعٍ

فأجابه حاجز : —

فَإِنْ تَكُ جَارِيَتِ الظَّلَالِ فَرِيْمَا      سَبَقْتُ وَيَوْمَ القَرْنِ عَرِيَانُ أَسْنَعٌ<sup>(٤)</sup>  
وَخَلَيْتُ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ كَأَنَّهُمْ      ذَبَائِحُ عَثْرٍ أَوْ نَخِيلٌ مُصْرَعٌ<sup>(٥)</sup>  
تَبْكِيهِمْ شَجْوَةَ الحَمَامَةِ بَعْدَ مَا      أُرْحَتَ وَلَمْ تَرْفَعْ لَهُمْ مِنْكَ أَصْبَعُ  
فَهَذِي ثَلَاثٌ قَدْ حَوِيَتْ نَجَاتَهَا      وَإِنْ تَنْجِ أُخْرَى فَهِيَ عِنْدَكَ أَرْبَعٌ<sup>(٦)</sup>

يقوم النقض هنا على معاني السرعة والسبق والمغالبة في الفروسية التي هي خواص الصعاليك ، فكان من تأبط شراً أن سبق حاجزا وصحبه ، وتغلب على جميع المسالك ، وسابق الطير فسبقه ، وعاد قويا كما كان . وادعى حاجز أنه طالما

(١) تشنعوا تهبأوا للقتال . (٢) مهيع : بين . والوعث الطريق الغليظ العسر .

(٣) الأشوش القوى على القتال ، والأروع من يعجبك بحسنه أو شجاعته — الأغانى

ج ١٨ ص ٢١٨ بولاق . (٤) أسنع : طويل . عريان : شنييع .

(٥) العثر الصنم الذي يذبح له (٦) الأغانى ج ١٨ ص ٢١٨

سبق أقرانه ، وترك منافسيه مقيمين كأنهم قربان مذبوحة أو نخيل مصرع يبكيهم صاحبهم . وأساس المناقضة هنا الموازنة أو المناظرة .

٧ - أغار البوح بن الخلاس الطائي على جيران الحصين بن الحمام المري ، من الحرقة فأخذ أموالهم ، وأتى الصريح الحصين ، فتبع القوم فأدر بهم ، فقال للبُرج : ما صبتك على جيرانى يا برج ؟ فقال له : وما أنت وهم ؟ هؤلاء من أهل اليمن ، وأنشأ يقول :-

أنى لك الحرقاتُ فيما بيننا      عَدَنٌ بعيدٌ منك يا بنَ حُمامٍ <sup>(١)</sup>  
أقبلتَ تزجى ناقةً متباطئاً      عُلطاً تُزحِّبها بغير خُطامٍ <sup>(٢)</sup>  
فأبه الحصين :-

بُرجٌ يؤثمنى ويكفرِ نعمتى      صَمَى لما قال السكفيلُ صَمامٍ <sup>(٣)</sup>  
مهلاً أبا زيدٍ فإنك إن تشأ      أوردك عُرضَ مناهلِ أسدامٍ <sup>(٤)</sup>  
أوردك أقبلةً إذا حافتها      خَوْضَ القعودِ خبيثةَ الأخصامِ <sup>(٥)</sup>  
أقبلتُ من أرضِ الحجازِ بدميةٍ      عُلطاً أسوقُها بغير خُطامِ  
فى إثرِ إخوانِ لئنا من طيءٍ      ليسوا بأَكفاءٍ ولا بكِرامِ  
لا تحسبنَّ ، أبا العفاطِ ، أننى      رجلٌ يُخبرك لستُ كالأمِّامِ <sup>(٦)</sup>  
فاستنزوكِ ، وقد بليتَ نطاقياً      من بيتِ أمك ، والذبولُ دوامى

قامت هذه المناقضة على حماية الجار ، اعترض الأول على زميله بأن يحمى من هو غريب عنه ، وأنه ركب فى ذلك ناقةً مهملة لا خطام لها ، فرد عليه الثانى فرماه بالعقوق ، وهدده ، وفخر بحمايته الجار ، ويزد أمواله .

(١) عنن : اعترض

(٢) عطلاسمة لها ولا خطام

(٣) صمى صمام : زيدى يذاهية (٤) أسدام جمع سدم : ماعتمفر أو مندفق .

(٥) أقبلة جمع قلب أى البئر القديمة ؟ أو البئر مطلقاً ، الأخصام الجواب

(٦) العقاطة للسكن .

٨ — ونوجز هنا ما دار بين خُفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي والعباس ابن مرداس ، وذلك أن خُفافاً قال وهو في ملاء من بني سليم : أن عباس ابن مرداس يريد أن يبلغ فينا ما بلغ عباس بن أنس ، ويأبى ذلك خصال قعدن به : اتقاؤه بخيله عند الموت ، واستهاتته بسبايا العرب ، وقتله الأسرى ، ومكالبه الصالعيك على الأسلاب ، ولقد طالت حياته حتى تمنيناموته ، فأبلغ العباس ذلك فتي منهم ، فقال له العباس : يا ابن أخي ، إن لم أكن كالأصم في حلمه فلست كخُفاف في جهله ، وقد مضى الأصم بما في أمس وخلفني بما في غد ، فلما أمسى تعنى : —

خُفافٌ ما نزال تَجْرُ ذَيْلًا	إلى الأمر المفارق للرشاد
إذا ما عاتبْتُك بنو سُليم	تبيت لهم بداهية نَادٍ <sup>(١)</sup>
وقد علم المعاشر من سُليم	بأنى فيهم حَسَنُ الأيادي
فأورد يا خُفاف فقد بُلَيْمٌ	بني عوف بحية بطنٍ وادٍ <sup>(٢)</sup>

ثم أخذ يرد على ما قال خُفاف في نثر جميل على طريقة المناقضة النثرية أمام ملاء من سليم وانصرف فقال خُفاف يرد على نثر عباس بأبيات منها : —

ولم تَقْتُلْ أسيرَ من زَبيد	بخالي ، بل غدرتَ بمستقادرٍ <sup>(٣)</sup>
فزَندك في سُليم شر زَند	وزادك في سُليم شر زاد

فأجابه العباس بأبيات تهجوه ويتوعده بينهما . ثم كف العباس وخُفاف ثم تحارب قوماهما ، ولكن دُرَيْد بن الصمة ومالك بن عوف أصلحا وقال دريد : كفوا صاحبكم عن لجاج الحرب وتهادى الشعر ، فاستحيا العباس ، فقال : إنا نكف عن الحرب وتهادى الشعر ، فقال دريد : إن كنتما لا بد فاعلين فاذا كرا

(١) نَاد : داهية ، بدل أو شديدة . (٢) أى بداهة خبيث . (٣) مستقادر : ذليل .

ما شئتَا ودعا الشتم فإن الشتم طرف الحرب ، فانصرفا على ذلك ، فقال  
العباس : -

فأبلغُ لديكَ بنى مالكٍ      فأنتمُ بأنبيائنا أخبرُ  
فأما النخيلُ فليستَ لنا      نخيلٌ نسقى ولا تؤبرُ  
وكنا جميعاً كجدلِ الحكا      كِ فيه المقتنعُ والمحسرُ<sup>(١)</sup>  
مغاوير ، تحملُ أبطالنا      إلى الموتِ ساهمةٌ ضميرُ<sup>(٢)</sup>  
وأعددتُ للحربِ خيفانةً      تديمُ الجراء إذا تخطرُ<sup>(٣)</sup>

فأجابه خُفاف : -

أعبّاسُ إن استعار القصيد في غير معشره مُنكرُ  
علامَ تناولُ ما لا تنالُ      فتقطعُ نفسك أو تحسُرُ  
فإن الدهانَ إذا ما أريد      فصاحبه الشامخُ المخطرُ<sup>(٤)</sup>  
تخاوصُ لم تستطعَ عدة      كأنك من بفضنا أعورُ<sup>(٥)</sup>  
فقصرُك مأثورة إن بقيتُ      أصحابها لك أو أسكرُ  
لساني وسيفي معاً فانظرنُ      إلى تلك أيهما تبدرُ<sup>(٦)</sup>

وطال الأمر بينهما حتى برم عباس بخُفاف ورأى أنه تورط فيما لا ينبغي أن

يكون عليه في العرب عامة وفي قومه خاصة ، وقال من أبيات : -

ألم تر أنى تركتُ الحروبَ      وأنى ندمتُ على ما مضى  
ندامة زارٍ على نفسه      لتلك التي عارها يُتقى

(١) جدل الحكاك عود ينصب للابل الجربى لتحتك به ، ويضرب مشلا لمن يلجأ إليه ويستغنى برأيه . (٢) مغاوير : كثير الغارات ، ساهمة : خيل عابسة .

(٣) خيفانة : فرس سريعة .

(٤) المخطر من جعل نفسه خطراً لصاحبه فيارزه .

(٥) تخاوص غص من بصره مع تحديق النظر . (٦) تبدر تعجل إليه .

فقال خفاف من أبيات : -

أعباسُ إمّا كرهت الحروبَ      فقد ذُقتَ مِن عَضِّها ما كفى  
أألقتَ حرباً لها شِدَّةٌ      زماناً تُسعرّها باللظى<sup>(١)</sup>  
فلمّا ترقّيت في غيها      دحضت وزلاً بك المرتقى

وسعى أهل الفساد إلى خُفاف فقالوا : إن عباساً قد فضحك ، فقال خفاف : -

يأيها المهدي لى الشتمَ ظالماً      ولستُ بأهل حين أذكر للشتمِ  
أبى الشتمَ أنى سيِّدٌ وابن سادة      مطاعينَ فى الهيجا مطاعيمَ للجرمِ<sup>(٢)</sup>  
هم منحوا الضرا أباك وطاعنوا      وذلك الذى يُرمى ذليلاً ولا يرمى<sup>(٣)</sup>

إلى آخر ما افتخر ، فقال العباس : -

يأيها المهدي لى الشتمَ ظالماً      تَبَيَّنَ إذا راميتَ هَضْبَةً مَن ترمى  
أبى الذمَّ عِرْضى إن عِرْضى طاهر      وأنى أبى من أباة بنى غَشْمِ<sup>(٤)</sup>  
وإنى من القوم الذين دماؤهم      شفاء لطلاب التراتِ من الرغمِ<sup>(٥)</sup>

وكان العباس وخفاف قد هما بالصلح وكرهت بنو سليم الحرب ، فجاء غوى من رهط العباس ، فقال للعباس : إن خُفافاً قد أتمى عليك وعلى والديك ففضب العباس فقال : قد والله هجانى فكان أعظمُ ما عابنى به أصغرَ عيب فيه ، ثم هجا والدى فما ضرَّهما ولا نفعه ، ثم برزت له فأخفى شخصه واتقانى بغيره ولو شئت لشتمتُ أباه وثلبتُ عرضه وقال من قصيدة : -

أرانى كلما قاربتُ قومى      نأوا عني وقطعُهمُ شديدُ

(١) ألقت حرباً : أشعلتها .

(٢) الجرم من معانيه الحق .

(٣) من معانى الضرا شدة الحرب . (٤) الغشم الظلم :

(٥) الترات جمع ترة : الثأر . والمعنى أنهم أمجاداً كفاء .

سَمْتُ عَتَابِهِمْ فَصَفَحْتُ عَنْهُمْ      وَقَلْتُ لَعَلَّ حَلْمَهُمْ يَعُودُ  
وَعَلَّ اللَّهُ يُمْكِنُ مِنْ خُفَافٍ      فَأَسْقِيهِ الَّتِي عَنْهَا يَحْيَى  
بِمَا اكْتَسَبَتْ يَدَاهُ وَجَرٌّ فِينَا      مِنْ الشُّحْنَا الَّتِي لَيْسَتْ تَبِيدُ  
فَلَمَّا بَلَغَ خُفَافًا قَوْلَ الْعَبَّاسِ قَالَ: وَاللَّهِ مَا عَبَتِ الْعَبَّاسُ إِلَّا بِمَا فِيهِ ، وَإِنِّي لَسَلِيمُ  
الْعُودِ ، صَحِيحُ الْأَدِيمِ ، وَلَقَدْ أَدْنَيْتُ سُوَادِي مِنْ سُوَادِهِ فَلَمْ أَحْجَمْ وَلَا نَكْصَتْ  
عَنْهُ ، وَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ :

أَرَى الْعَبَّاسَ يَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ      وَيَزْعَمُ أَنَّهُ ، جَهْلًا ، يَزِيدُ  
فَلَوْ نُقِضَتْ عِزَّتُهُ وَبَادَتْ      سَلَامَتُهُ لَكَانَ كَمَا يَرِيدُ  
وَلَكِنِ الْمَعَايِبَ أَفْسَدَتْهُ      وَخُلْفًا ، فِي عَشِيرَتِهِ زَهِيدُ  
وَقَالَ أَيْضًا : —

أَعْبَسُ إِنَّا وَمَا بَيْنَنَا      كَصَدْعِ الزُّجَاجَةِ لَا يُجْبَرُ  
إِلَى آخِرِ الْقَصِيدَةِ ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : —

خُفَافٌ أَلَمْ تَرِ مَا بَيْنَنَا      يَزِيدُ اسْتِعَارًا إِذَا يَسْمَعُ  
أَلَمْ تَرِ أَنَا نَهْمُ التَّلَا      دَ لِّلسَّائِلِينَ وَمَا نَعْدُ  
حَتَّى انْتَهَى مِنْ قَصِيدَتِهِ أَيْضًا<sup>(١)</sup> .

هذه السلسلة من النقائض التي دارت بين شاعري سليم تمتاز بجريانها في حدود قبيلة ملحوظة المكانة من قيس عيلان ، وأنها بدأت في قصد للبقيا على صلوات القربي ، وأن عناصرها فضائل اجتماعية ، حتى إذا اشتد أوارها ، ودعت إلى القتال وجدت من يحد من سورتها ، ثم عادت قوية ملحمة ، ولكنها لم تسف على كل حال . وكانت طرائقها القلب ، والموازنة ، والتكذيب ، وغلب عليها الفخر وإن لم تخل من الهجاء .

٩ - كان أبو ذئيب الهذلي يهوى امرأة فاتهمها بخالد بن زهير وقال في ذلك

من قصيدة :

خليلى الذى دلى نعى خليلتى      جهاراً فكل قد أصاب عرورها  
فشأنكها إني أمين وإننى      إذا ما تحالى مثلها لا أطورها  
رعى خالد سرى ليالى نفسه      توالى على قصد السبيل أمورها  
فلما تراماه الشبابُ وغيبه      وفى النفس منه فتنة وفجورها  
لوى رأسه عني ومال بوده      أغانيجُ خود كان فينا يزورها<sup>(١)</sup>  
تعلقه منها دلال ومقلة      تظل لأصحاب الشقاء تديرها  
فان حراما أن أخون أمانة      وآمن نفساً ليس عندي ضميرها

فأجابه خالد بن زهير من قصيدة : -

لا يُبعدنَّ الله لبك إذ غزا      وسافر والأحلام جَمَّ عثورها<sup>(٢)</sup>  
وكنت إماما للعشيرة تنتهى      إليك إذا ضاقت بأسر صدورها  
لعمرك أمّا أم عمرو تبدلت      سواك خليلا، شامى تستخيرها<sup>(٣)</sup>  
فان التى فينا زعمت ومثلها      لفيك ولكن لأراك تخورها<sup>(٤)</sup>  
ألم تنتقدها من عويم بن مالك      وأنت صفيّ نفسه وسجيرها<sup>(٥)</sup>  
فلا تجزعن من سنة أنت سرتها      فأول راض سنة من يسيرها  
وإن كنت تبغى للظلامه مركباً      ذلولا فإني ليس عندي بعيرها<sup>(٦)</sup>

هذه الأبيات من النقيضتين دارت حول امرأة كانت خليلة عويم بن مالك،

(١) أغانيج جمع أغنوجة : الدل .

(٢) غزا ذهب .

(٣) تستخيرها : تستعطفها .

(٥) سجيرها : صديقها .

(٤) تخورها تعرض عنها :

(٦) الأغانيج ج ٦ ص ٦٢ بولاق .

فاستغواها أبو ذؤيب الهذلي وأخذها لنفسه ، ثم غلبه عليها خالد بن زهير واتخذها خلية له ، فرماه أبو ذؤيب بخيانة عهد الصداقة ، وركوب سبيل الغواية بعد الرشاد ، ومطاوعة نوازع الشباب ، ومفاتن النساء . فرد عليه خالد ورماه بالجهالة بعد الحزم وادعى أن المرأة برمت به فأثرت عليه خالداً ، وأن هذا الغدر من شيمة أبي ذؤيب فهو الذي اغتصبها قبلاً من عويم بن مالك فاستن بذلك سنة الاستغواء وإذا ، لا يعد خالد ظالماً بل الظالم أبو ذؤيب نفسه .

١٠ — كان النعمان بن الحارث الغساني قد حمى ( ذا أقر ) وهو واد مملوء حمضاً ومياهاً فاحتماه الناس ، وبنو ذبيان لم تنحاهم فنهزم النابغة وخوفهم إغارة الملك عليهم فعيروه بخوفه النعمان وأتوا الوادي فبعث إليهم الملك جيشاً فأصابهم فقال النابغة في ذلك من قصيدة : —

لقد نهيتُ بنى ذبيان عن أقر <sup>(١)</sup>	وعن ترثمهم في كل أصفار <sup>(١)</sup>
وقلتُ يا قوم إن الليث مُنقبض	على برائنه لوثة الضارى
إمّا عُصيتُ فإني غير مُنفلت	مِنِ اللِّصَابِ فجنباً حرّة النار <sup>(٢)</sup>
أو أضع البيت في سوداء مُظلمة	تقيّد العير لا يسرى بها السارى <sup>(٣)</sup>
تدافع الناس عنا حين نركبها	من المظالم تُدعى أمّ صَبَّار <sup>(٤)</sup>
ساق الرُفَيْدِيَّاتِ مِنْ جَوْشٍ وَمِنْ عِظَمٍ	وماشٍ مِنْ رَهْطِ رَبِيعِيٍّ وَحَجَّارِ <sup>(٥)</sup>
قَرَمِيٍّ قُضَاعَةَ حَلًّا حَوْلَ حُجْرَتِهِ	مدًّا عليه بَسْلَافٍ وَأَنْفَارِ <sup>(٦)</sup>

(١) أصفار جمع صفر وهو الشهر المعروف .  
(٢) اللصاب جمع لصب وهو الثوب الضيق من الجبل ، وحرّة النار لابي مرة  
(٣) سوداء مظلمة : حرّة خشنة صلبه  
(٤) تدافع الناس عن مهاجنتنا فيها لوعورتها  
(٥) الرفيديات من بنى كلب ، وجوش وعظم أرض لبنى القين ، وماش خاط ، وربعي وحجار من عذرة  
(٦) القرم السيد ، السلاف المتقدمون

حتى استنقلَّ بجمع لا كفاء له      ينفي الوحوش عن الصحراء جزّار  
لا يخفض الرزَّ عن أرض ألمَّ بها      ولا يضل على مصباحه الساري<sup>(١)</sup>  
وعيرتني بنو ذبيان خشيتته      وهل على بأن أخشاك من عاري<sup>(٢)</sup>  
فبلغ بدر بن حزار قول النابغة ، فقال يرد عليه ويذكر أن عمرو بن الحارث  
أخا النعمان أسرف في تلك الواقعة ناساً من بني مرة فيهم عم النابغة ، وكان النابغة  
قد قال : « أو أضع البيت » الخ يعني الحرة ولم يفعل بل نزل (برداً) وهي  
أرض سهلة ، فأغار عليه جيش لابن جفنة وقيل لرجل من قضاة فأصاب ناساً من  
قومه فشمت به بنو فزارة فقال بدر :

أبلغ زياداً وحين المرء مُدركه<sup>(٣)</sup>      وإن تكيس أو كان ابن أضرار<sup>(٤)</sup>  
أضطرك الحرز من ليلى إلى برد<sup>(٥)</sup>      تختاره معقلاً عن جش أغيار<sup>(٦)</sup>  
حتى لقيت ابن كف اللوم في جب<sup>(٧)</sup>      ينفي العصافير والغربان جزّار<sup>(٨)</sup>  
فالآن فاسمع بأقوام غررتهم<sup>(٩)</sup>      بني ضباب ودع عنك ابن سيار<sup>(١٠)</sup>  
قد كان وافداً أقوام فجاء بهم      وانتاش عانيه من أهل ذى قار<sup>(١١)</sup>

يرد بدر على النابغة ما ادعى من الحزم والكياسة وحسن التدبير ، ويرميه  
بالتغريز برهطه حتى وقعوا في الشر .

١١ - وقال النابغة يهجو يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي :

لعمرك ما خشيت على يزيد      من الفخر المضلل ما أتاني  
كأن التاج معصوباً عليه      لأذواد أصبن بني أبان

(١) الرز الصوت ، والمصباح النيران توقد ايلاً (٢) ديوان النابغة ص ٥٩  
(٣) زياد هو النابغة « تكيس أظهر الكياسة ، ابن أضرار : حذر .  
(٤) جش أغيار موضع من حرة ليلى ، برد هو المكان الذي أغير عليه .  
(٥) جب : حيش كثير الأصوات .  
(٦) بنو ضباب رهط النابغة .  
(٧) انتاش أفتد ، العاني الأسير .

فحسبكَ أن تهاضَ بِمَحَكَمَاتِ  
فقبلِكَ مَا شَتِمْتُ وَقَادَعُونِي  
يصدُّ الشاعِرَ الثنِيَانُ عَنِي  
أثرتَ النغيَّ ثم نَزَعْتَ عَنْهُ  
فإِن يَقْدِرَ عَلَيْكَ أَبُو قَبَيْسٍ  
وَتُخَضَّبُ لِحْيَةُ غَدْرَتِ وَخَانَتِ  
وَكُنْتَ أَمِينَهُ لَوْ لَمْ تُنْحَهُ  
يَعْرُ بِهَا الرُّوْيَ عَلَى لِسَانِي  
فَمَا نَزُرَ الْكَلَامَ وَلَا شَجَانِي  
صَدُودَ الْبِكْرِ عَن قَرَمِ هِجَانِ<sup>(١)</sup>  
كَأَحَادِ الْأَزْبِ عَنِ الطَّعَانِ<sup>(٢)</sup>  
مَطَّأَ بِكَ الْمَعِيشَةَ فِي هَوَانِ<sup>(٣)</sup>  
بِأَحْمَرَ مِنْ نَجْمِ الْجَوْفِ آتِي  
وَلَكِنْ لَا أَمَانَةَ لِلْيَمَانِي

فأجابه يزيد فقال :

فإِن يَقْدِرُ عَلَىَّ أَبُو قَبَيْسٍ  
تَجِدُنِي كُنْتُ خَيْرًا مِنْكَ غَيْبًا  
وَأَيُّ النَّاسِ أَغْدَرُ مِنْ شَامٍ  
فإِنَّ الْغَدْرَ قَدْ عَلِمْتَ مَعْدُ  
وَإِنِ الْفَجَلَ تَنْزِعَ خَصِييَاهُ  
تَجِدُنِي عِنْدَهُ حَسَنَ الْمَكَانِ  
وَأَمْضَى بِاللِّسَانِ وَبِاللسَانِ  
لَهُ ضَرْدَانٍ مُنْطَلِقِ اللِّسَانِ<sup>(٤)</sup>  
بِنَاهُ فِي بَنِي ذَيْبَانَ بَانِي  
فِيصْبِحُ جَافِرًا قَرَحَ الْعِجَانِ<sup>(٥)</sup>

يعتبره النابغة بما يتكبر بغير حق ، ويهدده بالهجاء السائر ، ويفخر بغلبته الشعراء ، ويرميه بإثارته الشر ، ويوعده بما يلقي من الملك جزاء غدره ، فيكذبه يزيد ويثبت لنفسه حسن المكانة عند الملك ، والتقدم على النابغة ، وأن الغدر من شيمة ذيبان ، وأنه غالبه في الهجاء .

١٢ — لما أبى أمية بن الأسكر الكنانى أن يزوج ابنته عامر بن الطفيل

وزوجها يزيد بن عبد المدان ، وكانا يتنافسان عليها فقال يزيد من قصيدة :

(١) الثنيان : الممتاز البكر الفنى « وقدم الفحل الكريم ، والهجان الأبيض .  
(٢) الأزب البعير النفور ، والطعان حبال الهودج . (٣) مطأ : عمد وتبقى .  
(٤) الضر دان عرقان في أصل اللسان . (٥) جافر عزل عن الضراب .

يا للرجال إيطارقِ الأحران  
كانت إتاوة قومه لمحرّق  
عدّة الفوارس من هوازن كلها  
فاذا لي الشرف المتين بوالد  
ليست فوارس عامر بمقرّة  
فاذا لقيت بني الحماس ومالك  
فاسأل عن الرجل المنوّه باسمه  
يُعطي المتادة في فوارس قومه  
ولعاصر بن طفيل الوَسنان  
زَمناً ، وصارت بعدُ للنعمانِ  
فخراً علىّ ، وجئت بالديّانِ  
ضخم الدسيعة زانني ونماني  
لك بالفضيلة في بني عيلان  
وبني الضبابِ وحى آل قنان  
والدافع الأعداء عن تجران  
كرماً لعمرك والكريم يمان<sup>(١)</sup>

فأجابه عامر بن الطفيل : —

عَجَباً لوأصفِ طارقِ الأحرانِ  
فخروا علىّ بحبوة لمحرّق  
ما أنت وابنُ مُحَرِّقِ وقبيلهِ  
فأقصد بذرعك قسدا قومك نصرهم  
إن كان سالفهُ الإتاوة فيكم  
وأفخر برهط بني الحماس ومالك  
فأنا المعظمُ وابن فارس قرزُلِ  
هذه القصة ، وإن كانت موضع الشك منسوبة إلى ابن الكلبي وضماً  
لضعف شعرها وعدم ملاءمته عصره ، فإنها تدل على صورة كل من الرهطين في

(١) الأغاني ١٠٠ ص ١٢٥ .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ص ١٥٩ طبع أوربة

رأى شاعر الرهط الآخر ، وتناولت خضوع هوازن الملو ك وفخر يزيد بحسبه ونسبه ،  
ثم رد عامر عليه بأن يفتخر بقومه إن كانت لهم مفاخر .

\*\*\*

ونكتفي بهذه الشواهد راجين أن يجد فيها القارئ صوراً لقيام المناقضة حول  
الشئون الاجتماعية ، وقد يكون فيها تزيد أو وضع ، ولكنها ، في جملتها دليل  
على اتصال هذا الفن بحياة السلم كما قوى واتسع في ظل الأيام .

---

# الفصل السادس

## في خواص النقائض الجاهلية

تمثل النقائض الجاهلية هذا الفن الشعري في طوره الأول كما بينا ذلك عند القول في نشأته الأولى ، لذلك كان من الطبيعي أن تنتشر النقائض إبان نشأتها في هذه العقبات الأولى التي تتراءى في طفولة كل فن وأوليته السابقة ، ثم تتسم بسمات البداءة والسذاجة قبل أن تقوم أركانها ، وتقرر أصولها ، وهي بعد ذلك خاضعة لكل ما يؤثر فيها من عوامل مكانية ، وزمانية ، واجتماعية ، وشخصية ، حتى تنتهي إلى صورتها العامة التي تمثلها في هذا الطور القديم .

وقد لاحظنا أن هذه النقائض القديمة ظهرت نثراً أو حواراً عادياً في بعض المشاكل الاجتماعية كما حدث بين امرئ القيس وريوس بنى أسد في أعقاب مصرع حجر والد امرئ القيس ، وهذا أمر طبعى إذا كان النثر أوسع صدرأ وأرحب مجالاً لهذه الحاجة الاجتماعية والجدل العقلى القائم على البراهين وشرح وجهات النظر ، والسرعة في إبداء الرأى ، والاحتجاج له .

ثم رأيناها رجزاً كذلك ، نعم ، لست أرى أن يكون الرجز هو البحر العروضى الأول حتماً ، ولكنه على كل حال ، من الأوزان التي وجدت في الجاهلية وقطع عليها بعض الكلام ، وكان فناً شعبياً قليل النصوص ، يعتمد عليه الأعراب في الاستقاء ، والحداء ، والأيام ، ونحوها واستعمل في النقائض ساذجاً ، وبقي في الإسلام ، وفي عصر بنى أمية ، بل وجدنا أن النقائض بين

جرير وخصومه بدأت مراجعة<sup>(١)</sup> وهذا معناه أن فن الرجز أقرب إلى تمثيل الحياة في طورها الشعبي وحالاتها البدائية وإن لم يتحتم أن يكون أول الأوزان الشعرية على أية حال .

وظاهرة أخرى أن هذه النقائض الجاهلية قامت ، أول ما قامت ، على الركن الأساسي فيها وهو نقض المعاني دون التزام بحر أو قافية ، فكان ردوداً أو حواراً جديلاً ، انتقل من النثر إلى النظم في صورة ما ولعل مرجع ذلك أن الشعراء لم يكن قد حى بينهم الجدل إلى درجة العدوى الموسيقية ، أو لم يكن قد حى إلى درجة التحدى فعاشت النقائض الشعرية في صورة أولية لم تتكامل تقاليدھا النظمية المعروفة .

ولما كثرت الأيام ، وحميت العصبيات ، وتقدم الشعر ، وظهر الفحول ، واستحرت التحدى بينهم ، وتعاظمت الجاهلية في نفوسهم ، أخذت النقائض تطول ، وتتكامل عناصرها ، وتخضع للتحدى الموضوعى ، والمعنوى ، والموسيقى ، حتى تمت لها قواعدھا المعروفة وإن لم تبلغ من القوة ، والطول ، والدقة ، والسيروزة ، والعناية ، والتأثير ما بلغت أيام الأمويين .

وقد كانت أصولها أو مقوماتها جاهلية كما رأيت ، فقامت على الأنساب والأصول الاجتماعية المقررة ، وأنشئت في ظل الأيام ، وحميت بنار العصبيات القبلية واعترفت بالظلم ، والعدوان ، والمفاخرة بالأحساب والأنساب . نعم إنها لم تستند في سبيل الحياة الاجتماعية السامية شدتها في الحروب وما إليها ، وهذا طبعي ما دامت الحروب تهيج الانفعالات ، وتبعث الشعر ، وتقوى التحدى ، وكان الفخر والهجاء أهم فنونها بل أهم فنون الشعر الجاهلي جميعه ، وأهم فنون النقائض جميعاً .

---

(١) راجع مقدمة نقائض جرير وفرزدق عن أبي عبيدة .

كذلك قامت النقائض ، أكثر ما قامت ، في سبيل القبيلة والإمارة ، وعدت بذلك عن قبيل الشعر السياسي إذ كانت القبيلة دولة الشاعر وموثله ، وكانت الإمارة عرشه الملكي ، وجماعته السياسية الأخيرة قبل الإسلام<sup>(١)</sup> ثم قيلت النقائض في سبيل أخرى . ومهما تكن حماسة ، أو فخراً ، أو هجاء ، أو نسيباً ، أو غيرها ، فلقد كانت متأثرة بغايتها القبلية والملكية . وكانت كذلك أضيق أفقاً من النقائض الإسلامية التي قيلت في سبيل الأمة العربية أو الدولة الإسلامية .

نعم ، إن هذه النقائض لم تشغل العصر الجاهلي كما شغلت العصر الأموي ، أو الإسلامي الأول ، وذلك لتفرق القبائل والشعراء وعدم وجود غاية عامة أو وحدة جنسية تعمل المناقضة في سبيلها ، كما عملت بعد في سبيل الدين والدولة وشغلت الشعب ، والحكومة ، والأمراء ، والنقاد ، والعلماء ، والقبائل ، ونهض بها فحول الشعراء . وآية ذلك أن نقائض الأوس والخزرج في مقدمة النقائض الجاهلية أهمية وسيرورة لتقارب القبائل والشعراء ، وللعمل في سبيل سيادة يثرب وما حولها حتى كانت قبائل هذين الحيين أشبه بالأحزاب السياسية أو قبائل العرب أيام الأمويين .

ومن الأسباب التي حالت بين النقائض الجاهلية وبين إشغالها العصر القديم أنها كانت ظاهرة شعرية أكثر مما هي فن عتيده أصوله ورجالها المعروفون ففي عصر الأمويين نهض بها الفحول ، وصيروها أظهر الفنون القديمة ، وشغلوا بها العصر والأقاليم ، وأستقطوا منها العاجزين والمتوسطين .

ومع ذلك فلم تنحط النقائض الجاهلية إلى درجة الإسفاف الخلقى كما حدث أيام الأمويين ، ولم تهدر حدة العصبية جميع ما بين القبائل من حرمانات ،

---

(١) راجع تاريخ الشعر السياسي المؤلف ، الباب الأول .

وإنما لاحظنا فيها بقاءً على القرابة ، ورعاية للحُرُمات ، ووقوفاً في المهجاء عند صفات الجبن والبخل والفرار بحيث لا تخجل المرأة من رواية النقائص الجاهلية والمشاركة فيها إذ كانت أظهر معاني وأبعد عن ذكر العورات والكلمات النابية المكشوفة ، لكانت السفاهة الأموية أوغل في الإسفاف من الجاهلية الأولى ، وكان الإقذاع في المهجاء ، وهو تفضيل شخص على آخر ، شراً ما عرف المهجاء الجاهلي .

ومهما يكن من أمر فإن النقائص الجاهلية صورة صادقة لعصرها الأولى من حيث الموضوعات ، والمعاني ، والأساليب ، والغايات ، فلما جاء الإسلام وجد هذا الفن كامل الأداة فاعتمد عليه شعراؤه في ظل النهضة الجديدة وكان معهم امتدادا لهذا الفن الجاهلي من حيث أصوله الفنية ، وإن طرأت عليه سمات جديدة بتأثير الحياة الإسلامية مما فصله في الباب الثاني .

---